جامعة الدول العربية
معهد الدراسات العربية العالية

محاضرات
عن
مستقبل اللغة العربية المشتركة

ألقاها
الدكتور ابراهيم أنيس

(على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية)

١٩٥٩

١٩٦٠

جامعة الدول العربية
معهد الدراسات العربية العالية

محاضرات

عن

مستقبل اللغة العربية المشتركة

ألقاها
الدكتور ابراهيم أنيس

(على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية)

١٩٥٩

١٩٦٠

مستقبل اللغة العربية المشتركة

معنى اللغة المشتركة

يستطيع دارس اللغة فى سهولة ويسر بعد استعراض التوزيع اللغوى فى العالم أن يتبين أن هناك ما يمكن أن يسمى بالجماعات اللغوية، وأن كل جماعة منها تحل منطقة جغرافية معينة تضيق حيناً وتتسع حيناً آخر ، وأن الناس فى تلك المنطقة قد ربطت بينهم صلات من التعاون وتبادل المصالح الدنيوية تعينهم على الحياة معاً والاستقرار فى صعيد واحد وقد شملهم الأمن والاطمئنان . وقد تقوى تلك الصلات الدنيوية بأخرى روحية من دين أو عقيدة أو مذهب من المذاهب السياسية

وهنا قد يخطر فى ذهن هذا الدارس أن يقسم البشر إلى أمم ودول وأن يجعل من كل أمة ما نسميه بالجماعة اللغوية...ولكنه لا يلبث أن تتضح له فروق بين الجماعة اللغوية فى عرف اللغويين وبين الدولة فى عرف أهل السياسة ونظم الحكم حين يجد دولة واحدة بالمعنى السياسى تتكون من أكثر من جماعة لغوية ، كما هو الحال فى « سويسرا » التى تتألف من ثلاث جماعات لغوية ، قسم فرنسى ، وقسم ألمانى ، وقسم إيطالى .

ولسنا بحاجة ونحن بصدد الدراسة اللغوية أن نقتحم ميدان الدراسة السياسية ، لتحدد حدود الدولة ومقوماتها بالمعنى السياسى ، وكل الذى يعنينا كلغويين أن نجد لغة من اللغات تنتظم منطقة من المناطق ونرى الناس هناك يتخذون هذه اللغة أداة التفاهم والاتصال فيما بينهم ، وهؤلاء هم الذين نطلق عليهم الجماعة اللغوية. وليس يمنع من تلك التسمية أن نجد بينهم صفات محلية يقتصر أمرها على محيط ضيق فى صورة قرية صغيرة أو حتى أسرة من الأسر . فى كل جماعة لغوية مناطق صغيرة أو بيئات قليلة العدد يتصف كل منها بصفات محلية وهى التى يطلق عليها أحياناً اللهجات .

ويؤكد لنا اللغويون من المحدثين أن لكل فرد منا صفاته الكلامية

الخاصة وأن لكل أسرة صفات مميزة لا نكاد نلحظها فى غيرها ، ولكن الذى يعنى به اللغوى هو تلك المجموعة من الصفات العامة التى تنتظم جميع الأفراد والتى تكون منهم ما نسميه بالجماعة اللغوية .

وقد دلت الملاحظة على أنه حين تقوى الصلة بين أفراد الجماعة اللغوية وتسهل بينهم وسائل الاتصال والارتباط مادية كانت أو ثقافية تتكون لهم مع الزمن « لغة مشتركة » تقرب بينهم وتعينهم على تفاهم أسرع وأيسر وتقضى لهم مصالحهم الدنيوية ، ثم قد تصبح بعد ذلك وسيلة للمتعة حين تتخذ للتعبير عن أحاسيسهم وعواطفهم فى كل نتاج أدبى جميل . وقد يتسع نطاق اللغة المشتركة فيشمل عدة دول ، كاللغة الإنجليزية التى نراها فى انجلترا وأمريكا وكندا واستراليا ونيوزيلندا وغير ذلك من بقاع الأرض . وهى وإن اختلفت فى تلك الجهات فى بعض الصفات المحلية نلحظ أن هناك شكلا عاماً لهذه اللغة هو الذى يجمع بين كل هذه النواحى وهو الذى نراه فى صحفها وكتبها وفى كل مجالاتها الجدية أداة للقول والتفاهم وقضاء المصالح . وذلك الشكل العام للغة الإنجليزية هو الذى نطلق عليه الإنجليزية المشتركة .

ولسنا نتوقع أن نجد كل لغة مشتركة وقد اتسعت رقعتها على هذا النحو وإنما الغالب فى اللغات المشتركة هو أن يقتصر استعمالها على دولة بعينها أو أمة خاصة محدودة المناطق التى يتاخم بعضها بعضا .

ولدينا على كل حال فى العصر الحديث أمثلة للغات المشتركة واضحة المعالم والحدود ، كالفرنسية والألمانية والإيطالية ، وغيرها .

وحين نعود إلى الوراء عدة قرون نرى أن ما نسميه الآن باللغات المشتركة فى أوروبا كانت لا تعدو أن تكون فى صورة لهجات محلية يصطنعها العامة فى الحديث العابر وفى أمورهم التافهة . وكانت تلك اللهجات منفردة منعزلة ، ولكل منها طابعها الخاص .

وكانت دول أوروبا فى تلك الأزمنة عبارة عن ولايات صغيرة خاضعة

للحكم الرومانى ، بل وحتى بعد استقلالها عن الرومان ظلت اللغة الرومانية تسيطر على مناطق أوروبا فى كل الشئون الثقافية ، والحضارية ، وتصطنع فى كل مجال جدى من مجالات الحياة . أى أنه جاء عهد على اللغة الرومانية كانت فيه بمثابة اللغة المشتركة التى عمت وانتظمت معظم جهات أوروبا القديمة .

ثم كان عصر النهضة الأوروبية وأحس القوم فى أوروبا برغبتهم فى الاستقلال عن اللغة الرومانية ، فبدءوا يكتبون آدابهم بلغاتهم المحلية ، وكانت اللبنات الأولى فى صرح اللغات المشتركة فى أوروبا على يدى بعض من الكتاب والمفكرين أمثال تشوسر فى انجلترا فى قصصه Tales of Conterbery ، وينسب مثل هذا لدانتى فى إيطاليا ولوثر فى ألمانيا وغير هؤلاء من الأدباء فى عصور النهضة الأوروبية .

على أنه من المغالاة أن يقال إن هؤلاء الأدباء هم وحدهم مؤسسو اللغات المشتركة فى أوروبا . ذلك لأن نشأة اللغة المشتركة ونموها عملية تدريجية لا تتم فى جيل أو جيلين ، بل تتطلب جهوداً متضافرة وظروفا اجتماعية وسياسية واقتصادية قبل أن تعد بحق لغة مشتركة .

وتتخذ اللغة المشتركة فى بدء نشأتها مركزاً معيناً يتاح له من الظروف والفرص مالا يتاح لغيره ، فتتطلع إليه المناطق الأخرى وتسلم له زمام القيادة فى النواحى السياسية والاقتصادية والثقافية وينزح إليه الناس من كل حدب فيؤثرون فى لهجة أهله ويتأثرون بها ثم تتبلور عملية الاتصال فى آخر الأمر إلى صورة من الكلام أساسها اللهجة المحلية الأصلية وقد امتزجت بعناصر أخرى وافدة عليها ويتكون من ذلك كله مزيج منسجم يقبله الجميع وهو ما نسميه باللغة المشتركة . ومراكز اللغات المشتركة فى العالم هى عادة عواصم الدول والمدن الكبرى التى تهيأت لها تلك الظروف الاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية .

فالإنجليزية المشتركة تأسست فى بدء نشاطها على لهجة لندن ، ولكن من المغالاة أن يقال إن معظم صفات الإنجليزية المشتركة مستمد من تلك اللهجة ، وذلك لأن الذين وفدوا إلى لندن فى العصور المختلفة كانوا من الكثرة فى العدد والنفوذ فى السلطان بحيث لا يتصور أنهم استسلموا للهجة لندن فى سهولة أو إذعان ، وإنما الذى يتصور أنهم جلبوا معهم كثيراً من صفات لهجاتهم وأنهم أثروا فى لهجة لندن تأثيراً قوياً قضى أو كاد يقضى على معظم معالمها القديمة وصفاتها الأصيلة .

والذى تم على كل حال هو أن اللغة الإنجليزية المشتركة التى نشأت فى لندن قد انتشرت فى كل بقاع انجلترا وتغلبت على أشهر لهجاتها ، كلهجة لنكشير وكورنول وبعض نواحى ويلز ، فانعزلت تلك اللهجات وانزوت ولم تعد صالحة للاستعمال إلا فى نطاق ضيق .

ويرى بعض الباحثين أن الإنجليزية المشتركة قد استمدت معظم صفاتها من لهجة الطبقة الأرستقراطية التى تكونت بعد النهضة الصناعية من حكام الإقطاع ومن التجار والصناعيين الذين أصابوا من الثروات والنفوذ الإقتصادى مركزاً مرموقاً ولقد مكن التميز الاقتصادى والسياسى لأبناء الطبقة الراقية من أن تكون لغتهم هى اللغة المشتركة ، وذلك لأنهم كانوا دائماً محل التقليد من أبناء الطبقات الأخرى ، وسميت اللغة المشتركة بلغة المدارس الخاصة وهى المدارس التى أنشأها الأرستقراطيون لأبنائهم أمثال إيتون وهارو ، وغيرهما .

ويتضمن مثل هذا الرأى قـــدراً كبيراً من المغالاة والإسراف لأن الإنجليزية المشتركة التى نراها الآن تتميز تميزاً واضحاً عن لغة هذه الطبقة الأرستقراطية ، بل إن كثيراً من المثقفين الآن بانجلترا ليسخرون من بعض الصفات الخاصة بلهجة أكسفورد وكمبردج .

والحقيقة هى أن الإنجليزية المشتركة قد استمدت عناصرها من كل

تلك المصادر أو المنابع حتى أصبحت الآن ذات طابع معين لا يكاد يمت إلى أحد منها بصلة .

ولما أسست الإذاعة البريطانية منذ ثلاثين عاماً تساءل المسئولون فيها عن النطق الإنجليزى النموذجى ، وعما إذا كان من واجب المذيع أن يترسم خطا لهجة الأرستقراطية فى أكسفورد وكمبردج ، واستقر الرأى حينئذ على انتهاج حال من النطق لا يلمح معه السامع طبقة معينة او بيئة خاصة . وزاد استقرار اللغة الإنجليزية المشتركة منذ ذلك الحين واتضحت معالمها بانتشار الراديو فى كل مكان .

وهكذا نشأت وتنشأ كل اللغات المشتركة فى العالم حين تتاح الفرص وتتهيأ الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل والدينية فى بعض الأحيان ، لمنطقة بعينها كى تسود لهجتها وتصبح محل إعجاب الناس وتقليدهم فى المناطق الأخرى .

صفات اللغة المشتركة :

يجمع اللغويون المحدثون على أن أهم معالم كل لغة مشتركة يمكن أن تلخص فى الصفتين التاليتين :

١ — أولاهما أنها مستوى لغوى أرقى من لهجات الخطاب فى غالب الأحوال ، أى أنها ثابتة الأركان والدعائم قد استقر أمرها على قواعد ونظم لا تسمح لها بالتغير أو النطور إلا فى القليل من الأحيان وبعد أجيال من الاستعمال . وهى لذلك يتخذها الناس مقياساً لحسن القول وإجادة الكلام .

٢ — الصفة الثانية للغة المشتركة هى التى عبر عنها هنرى سويت بقوله « هى اللغة التى لا يستطيع السامع أن يحكم على المنطقة المحلية التى ينتمى إليها

المتكلم بها[1] ، أى أن اللغة المشتركة وإن تأسست فى بدء نشأتها على لهجة منطقة معينة قد فقدت مع الزمن أو نسى الناس فى أثناء استعمالها كل المنابع التى استمدت منها عناصرها وأصبح لها كيان مستقل ، فلا تذكرنا فى أثناء التكلم بها أو سماعها بمنطقة خاصة أو بطبقة خاصة ، بل يشعر كل من السامع والمتكلم أنها ملك الجميع وأم الجميع لا يدعيها لأنفسهم قوم بأعينهم ولا تنسب إلى بيئة معينة . وهى لذلك تكتسب الاحترام من الناس جميعاً فلا يسخر منها أحد ولا ينقدها أحد ، بل يلجأ إليها الكل ليتخذوا منها العصا السحرية التى تقضى لهم مصالحهم والتى تؤثر فى السامعين تأثيرا قويا .

اللغة العربية المشتركة قبل الإسلام

اللغة العربية كما نعلم إحدى اللغات السامية التى منها العبرية والسريانية والحبشية والأكادية . ويؤكد لنا كثير من المستشرقين أن هذه اللغات قد انحدرت جميعاً من أصل واحد افترضوا وجوده فى قديم الزمان وسموه بالسامية الأولى . ولما قارنوا بين اللغات السامية والنصوص التى بقيت منها تكشفت لهم حقيقة علمية يكادون يجمعون عليها وهى أن اللغة العربية قد احتفظت لنا بعناصر قديمة كانت فى السامية الأولى أكثر مما احتفظت به شقيقاتها ، كالإعراب وجموع التكسير وكثير من صيغ الأسماء وغير ذلك . ومع هذا فحين تقارن نصوص العربية القديمة ببعض نصوص لغة كالعبرية مثلا نجد أن أقدم ما بأيدينا من نصوص العربية لا يكاد يجاوز قرنين من الزمان قبل الإسلام ، على حين أن بعض النصوص العبرية ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد . فكتب العهد القديم من التوراة والقضاة والملوك وأسفار الأنبياء قد كتبت كلها فيما بين القرن العاشر والثالث قبل الميلاد .

---

(١) انظر كتابه Sounds of English

ولذلك يقال دائما إن ما يسمى بطفولة اللغة العربية يكاد يكون مجهولا لنا جهلا تاما . فليس بين أيدينا الآن نصوص عربية مؤكدة يمكن أن نرجعها إلى أوائل عهد المسيحية أو إلى ما قبل ذلك . أما تلك النقوش التى عثر عليها فى شمال الجزيرة وجنوب بلاد الشام والتى يقال لنا إنها تمثل مرحلة من مراحل طفولة اللغة العربية ، فيجدر بنا أن نتردد كثيراً قبل استنباط أى شىء منها فيما يتصل بحال اللغة العربية فى تلك العصور . ومادة هذه النقوش على كل حال ضحلة ، وكثير من ألفاظها عبارة عن أعلام لأشخاص، فلا يقنع معها الباحث حين يبغى الاسترشاد بها فى تبين حال اللغة العربية فى تلك العهود .

على أن النصوص العربية الكثيرة التى انحدرت إلينا ممثلة لما نسميه بالأدب الجاهلى والتى يرجعها الباحثون إلى قرن ونصف أو قرنين قبل الإسلام تبين لنا بوضوح أن اللغة العربية لابد أن تكون قد مرت قبل هذه النصوص بأطوار ومراحل قبل أن تصل إلى ما نألفه فى الأدب الجاهلى من نضج فى أوزان الشعر وأساليب النثر .

وأقدم مانستطيع تصوره فى شأن شبه الجزيرة العربية هو أن نتخيلها وقد انتظمتها لهجات محلية كثيرة ، انعزل بعضها عن بعض واستقل كل منها بصفات خاصة . ثم كانت تلك الظروف التى هيأت لبيئة معينة فى شبه الجزيرة فرصة ظهور لهجتها ثم ازدهارها والتغلب على اللهجات الأخرى . وتلك البيئة هى بيئة مكة وما حولها من معظم مناطق الحجاز .

فالعرب قبل الإسلام كانوا يحجون إلى مكة فى موسم سنوى ويطوفون بالكعبة ويؤدون معظم الشعائر الدينية التى نألفها الآن فى فريضة الحج كما جاء بها الإسلام . فكانوا ينظرون إلى بيئة مكة نظرة تقديس ، وإلى لغة أهلها نظرة إعجاب واحترام .

وقد أدى توالى الوفود إلى مكة واجتماعهم بأهلها واتصالهم بهم اتصالا روحيا ، أن نشأ لذلك المجتمع العربى نواة لغة مشتركة تقرب بين القبائل وتؤلف بين قلوبهم ، وذلك هو العامل الدينى الذى ساعد على جعل مكة وما حولها المهد الأول للغة العربية المشتركة.

كذلك كان للعرب قبل الإسلام أسواق أشهرها عكاظ التى كانت تعقد فى أوائل ذى القعدة والمجنة فى أواخر ذلك الشهر وذو المجاز فى أوائل ذى الحجة ، وهى أسواق للإقامة حول مكة زمنا ما . فكانت أشبه بما نسميه الآن بالمعسكرات أو المخيمات . ولم تكن تلك الأسواق للتجارة وحدها ، بل كانت أقرب إلى المؤتمرات الثقافية ، ففيها يقوم الخطباء داعين إلى فكرة دينية أو مذهب سياسى ، وفيها ينشد الشعراء من مختلف القبائل أشعارهم وقصائدهم ، فتمت فيها المساجلات والمناظرات التى استمع إليها الناس فى شوق وإعجاب ، وكل هذا مما يتطلب بطبيعة الحال ضرورة التقريب بين لهجات الوفود من القبائل

وهكذا نرى أن بيئة مكة قد هيئت لها ظروف وفرص بعضها دينى وبعضها اقتصادى واجتماعى ، مما ساعدها على أن تصبح المركز الذى تطلعت إليه القبائل ، وشدت إليه الرحال قرونا عدة قبل الإسلام . فكان أن نشأت بها لغة مشتركة أسست فى كثير من صفاتها على لهجة مكة . ولكنها استمدت أيضاً الكثير من صفات اللهجات التى كانت تفد إليها ، ثم نمت هذه اللغة مع الزمن وتبلورت مسائلها وأصبح لها كيان مستقل عن كل اللهجات ثم انتشرت مع القبائل والوفود حتى انتظمت جميع أنحاء شبه الجزيرة ، وأصبحت اللغة التى ينظم بها الشعراء ويخطب بها الخطباء والتى تصطنع فى كل مجال جدى من مجالات القول ، فهى اللغة الأدبية النموذجية التى كانت محل الإعجاب والتقدير من العرب جميعاً . ولذلك نزل بها القرآن الكريم — وهو معجزة الإسلام الكبرى — يتحدى أولئك العرب الذين عنوا

كل العناية بصناعة القول وحسن البيان، تحداهم ليأتوا بسورة من مثله فأعجزهم وأخمهم .

فلا يمثل القرآن لغة قريش وحدها كما يتردد أحيانا فى بعض الكتب والروايات ، وإنما يمثل اللغة المشتركة بين العرب جميعا لغة الأدب من شعر وخطابة وكتابة .

صفات هذه اللغة المشتركة :

١ — أنها ككل لغة مشتركة تحل مستوى أرقى من لهجات الخطاب ، ولذلك لم يتقنها إلا الخاصة من العرب . وهى وإن كانت مفهومة لعامة العرب يسمعون إليها فى شوق وإعجاب غير أنها لم تكن فى متناول جمهور الناس أو عامتهم ، ولذلك كانوا يرون إجادتها مما يرقى بالمرء إلى المركز المرموق بين أهله وعشيرته .

فالخطباء بها هم أصحاب الفصاحة واللسن بين العرب ، وشعراؤها هم أهل القرائح الفذة الذين كانت القبائل تهنأ بمولدهم . فهؤلاء وهؤلاء هم وجوه القوم وقادتهم ومحل آمالهم ، تتطلع إليهم النفوس وتشرئب إليهم الأعناق فى المجالس والأندية .

٢ — الصفة الثانية : أنها لم تكن ذات طابع محلى فلا تنتمى فى ظواهرها وعناصرها إلى قوم بأعينهم أو إلى بيئة معينة ، يسمعها المرء فلا يكاد يدرى إلى أى قبيلة ينتسب المتكلم بها ، فهى مزيج منسجم من القواعد والأصول أخذت مع الزمن هذا الشكل العام ، فلا تدعيها لنفسها قبيلة من القبائل ولا يقتصر شأنها على بيئة بعينها من بيئات العرب القدماء .

وعاشت تلك اللغة المشتركة قبل الإسلام مع لهجات القبائل جنبا إلى جنب ، الأولى تصطنع فى المجال الجدى من شعر وخطابة ، والأخرى تتخذ أداة التفاهم بين أفراد القبيلة فى دعابتهم وفكاهتهم وبعض أغانيهم وفى الحديث

العابر بين المرء وأهله وعشيرته وذويه ، فاذا تصادف الآن أن عثر الدارس على صفة لإحدى اللهجات القديمة ووجد ما يماثلها فى اللغة المشتركة لا يستطيع أن يقطع أو أن يجزم أن اللغة المشتركة قد اقتبستها من اللهجة المحلية أو العكس ، فكلا الفرضين جائز محتمل .

ومثل هذه الصفة يخرجها الدارس من نطاق اللهجات ولا يعرض لها فى دراسته للهجه من تلك اللهجات ، وإنما ينظر إليها على أنها أصبحت ملكا للغة المشتركة وحدها .

وهنا نتساءل كيف إذن نفسر تلك الأمثلة التى وردت فى الشعر القديم مشتملة على صفات محلية لقبائل معينة ؟

فيروى لنا أبو على القالى فى أماليه شعرا منسوبا لخنافر الحميرى ومشتملا على كلمات لا تعرفها إلا اللهجة الحميرية مثل :

ألم تر أن الله عاد بفضله فأنقذ من لفح الزخيخ خنافرا
وكشف لى عن جحمتى عماهما واوضح لى نهجى وقد كان دائرا
دعانى شصار للتى لو رفضتها لأصليت جمرا من لظى الهوب واهرا

فالزخيخ بمعنى النار ، والجحمتان العينان ، والهوب النار . والواهر الساكن مع شدة الحر ، وكل هذا مما اختصت به اللهجة الحميرية. كذلك تسوق إلينا كتب الشواهد النحوية أمثلة شعرية كثيرة لا تخضع لقواعد اللغة المشتركة مثل :

تزود منا بين أذناه طعنة دعته إلى هابى التراب عقيم
إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها
أبيت أسرى وتبيتى تدلكى شعرك بالعنبر والمسك الزكى

ونحن أمام هذه الشواهد بين أمور ثلاثة :

(ا) إما أن نقول إن خطأ فى روايتها قد انحرف بها عن الطريق

المألوف فى لغة الشعر ، وقد اعترف علماء اللغة بوقوع هذا النحو من الخطأ فى رواية الأبيات .

(ب) أو أن نقول إن الشاعر نظم البيت على حسب ما تقضى به قواعد اللغة المشتركة . ثم انتشرت القصيدة فى الأرض ورواها بعض الأعراب على حسب ما تقضى به لغتهم المحلية . فقد كان الشاعر ينظم القصيدة باللغة المشتركة ثم ينشدها فى الأسواق ويطلقها بعد ذلك ملكا للناس يروون منها ما يستطيعون وكما يستطيعون ولاحرج عليهم أو رقيب، فكانوا كما يقول ابن هشام فى شرح الشواهد :

« كانت العرب ينشـــد بعضهم شعر بعض وكل يتكلم على مقتضى سجيته التى فطر عليها ، ومن هنا كثرت الروايات فى بعض الأبيات » .

(ج) أو أن يقال إن تلك الأمثلة من بقايا الأدب الشعبى للقبيلة ذلك الأدب المحلى الذى عبر عن الشئون الخاصة بالقبيلة من تراث وتقاليد ودعابة والذى تغنوا به فى مجالسهم الخاصة ،فكان من الطبيعى أن يشتمل على صفات لهجتهم المحلية .

وهذا النوع من الأدب المحلى قد اندثر أكثره ولم يتسرب إلينا من امثلته إلا القليل النادر. ذلك لأن رواة اللغة الأول لم يروه أهلا للرواية أو مما يستحق التدوين والتسجيل. فيبدو والله أعلم أنه كان للعرب القدماء نوعان من الأدب ، أدب جدى أرستقراطى تنظر إليه النظرة السامية وهو الذى اتخذت له اللغة المشتركة أداة التعبير عنه ، وهو الذى تناقلته الروايات جيلا بعد جيل واعتز به رواة اللغة فدونوه وشرحوه وجعلوه محلا للمدارسة والاستشهاد فى أكثر الأحوال . ثم كان هناك بجانب هذا نوع آخر من الأدب هو أدب القبيلة الذى نظم أكثره من بحر الرجز للتعبير عن أحاسيس القبيلة وآمالها وحروبها وقصصها وفكاهاتها ، وهو الذى ضنت عليه الروايات بالذكر ، فاندثر كله وذهب بموت أصحابه .

ومما يؤيد ما نذهب إليه من أن اللغة المشتركة بين العرب قد خلت من الصفات المحلية أن شعر الشعراء من ربيعة ، لا يعرف ما اشتهر عن لهجتها من كشكشة ، وشعر الشعراء من تميم لا يعرف العنعنة . بل حين نتتبع صفات لهجة هذيل فى ديوان الهذليين لانكاد نعثر على شيء اللهم إلا تلك الإشارات السريعة التى نراها فى كلام بعض شراح الديوان وكلها لا تخلو من التكلف أو التعسف ، أو ربما كانت من صنع الرواة فى العصور المتأخرة حين أغرموا بتعدد الروايات والمجيء بكل غريب رغبة فى التعالم ، وحبا فى التظاهر فى مجالس العلم . فكل بيت من أبيات ديوان الهذليين زعم لنا الشراح المتأخرون أن به صفة من لهجة هذيل رويت له رواية أخرى لاتكاد تختلف عن النهج المألوف فى اللغة المشتركة .

فى البيت :

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نئيج

يروى :

ترنّت بماء البحر ثم تنصبت على حبشيات لهنّ نئيج

* * *

وفى البيت :

بأسفل ذات الدبر أفرد حجشها فقد ولهت يومين فهى خلوج

يروى :

بأسفل ذات الدبر أفرد خشفها فقد ولهت يومين فهى خلوج

* * *

فليس فى ديوان الهذليين تلك الصفات التى اشتهرت عن لهجة هذيل من فحفحة واستنطاء ونحو ذلك .

٣ ــ الصفة الثالثة أن الإعراب فى اللغة العربية المشتركة لم يكن مظهراً

من مظاهر السليقة للعرب جميعاً بحيث يؤديه الفرد منهم غير شاعر بخصائصه ولا منتبه لقواعده ، ولكنه كان مظهر سليقة للقلة المختارة من خاصة العرب أولئك الذين أجادوا هذه اللغة وأتيحت لهم فرصة إتقانها .

ذلك لأن السليقة اللغوية فى رأى المحدثين لا تعدو أن تكون مرحلة من مراحل إتقان اللغة، عندها لا يكاد يشعر المتكلم بخصائص كلامه من حيث الأصوات وأبنية الألفاظ وتراكيب الجمل ، فهو يؤدى الكلام بصورة آلية دون ان يكون له أى اختيار فى هذه النواحى بل تصدر منه دون تكلف أو تعمد وإنما على حسب ماسمع فى صغره ممن حوله من الكبار وعلى نفس النهج الذى يسلكونه : فالمرء يبدأ حياته مقلداً للغة أبويه وتصادفه عقبات وعثرات فى هذا التقليد ويمر بمراحل كثيرة قبل أن يصل إلى تلك التى تسمى بمرحلة السليقة .

أى أن اكتساب اللغة يبدأ بالتقليد وكثرة المران ، ولا يقال للطفل فى أثناء تعلمه لغة أهله وقبل أن يسيطر عليها إنه يتكلمها بالسليقة .

فلا وراثة فى السليقة اللغوية وإنما الأمر كله رهن بالاكتساب والتقليد والمران وعلى حسب ما تشكله البيئة . فاللغة مالك من يتعلمها لا أثر للوراثة أو الجنس فيها . فالطفل الذى يولد من أبوين مصريين ثم ينشأ بعيداً عنهما فى بيئة انجليزية يشب وينمو كالإنجليز تماما من حيث اللغة . ويسيطر الطفل عادة على أصوات اللغة وأبنيتها وتراكيب جملها قبل أن يتم العاشرة من عمره .

أما من حيث دلالة الألفاظ فتحتاج السيطرة عليها زمنا أطول كثيرا، بل إن المرء يظل طول حياته فى صراع مع تلك الدلالات ، ولكنه على كل حال لا يكاد يناهز أواخر العقد الثانى حتى يتمكن من قدر كبير جدا من تلك الدلالات . والفرق بين أبناء اللغة الواحدة من حيث الدلالات فى

الألفاظ ليس إلا فرق أسلوب ، هذا يؤثر لفظا على آخر وذاك يحسن اختيار اللفظ المناسب للمقام ، على حين أن زميلا له يسيء الاختيار .

وليس فى السليقة اللغوية لدى المحدثين شيء غامض أو أمر سحرى كما كان علماء العربية القدماء يظنون حين ربطوا بينها وبين البداوة حينا أو الجنس العربى حينا آخر . إذ لم يتصوروا أن الأجنبى عن العربية يمكن أن يتقنها كأبناء العرب مهما بذل من جهد أو صرف من زمن .

وصاحب السليقة اللغوية لا يكاد يخطىء فى كلامه أو ينحرف عن طرق أدائها ، فإذا حدث مرة أن زل لسانه أو تعثر فى كلامه لأمر طارىء أو موقف رهيب أو ساعة غضب وانفعال أحس بذلك الانحراف وشعر بخطئه فأصلحه فى التو والساعة . أما غيره ممن لم يتقن اللغة ولم يصل فيها إلى مرحلة السليقة فيجوز عليه الخطأ ، وإذا أخطأ أو لحن لا يكاد يشعر فى غالب الأحيان بذلك .

ولعل أقوى دليل على أن الإعراب فى اللغة العربية المشتركة لم يكن مظهر سليقة لعامة العرب تلك الروايات الكثيرة التى تحدثنا عن وقوع اللحن من العرب قبيل الإسلام وبعده وفى تلك العصور التى تسمى بعصور الاحتجاج .

وكلمة اللحن فى الأصل معناها الميل على النهج المألوف ، وقد ورد الوصف من هذه الكلمة على صورة « اللحن » وجاء فى شعر لبيد بمعنى « الفطن » لأن الفطن سريع الميل والالتفات ، إذ وصف لبيد وليدا يمانيا مرنا على الكتابة فقال :

متعود لحن يعيد بكفه قلما على عسب ذبلن وبان

فإذا شئت ربط هذه الكلمة على هذا المعنى بمعناها الذى ورد أحيانا فى النصوص الجاهلية حين استعملت للغناء أمكن أيضا أن يقال إن الغناء

لا يعدو أن يكون انحرافا عن الطريق المألوف فى النطق العادى . ولسنا مع هذا بحاجة إلى هذا الربط فلنترك اللحن بمعنى الغناء هنا. وتطور معنى اللحن فيما يبدو إلى معنيين فرعيين هما :

(ا) اللهجة الخاصة . (ب) الإشارة والرمز والإيماء .

وظل هذان المعنيان مألوفين سائدين فى أوائل عهد الإسلام ، فقد وردت لنا روايات كثيرة عن مطلع الإسلام وفيها استعملت الكلمة بهذين المعنيين . فيقول الشاعر :

وقوم لهم لحن سوى لحن قومنا وشكلٌ وبيت الله لسنا نشاكله

أى لهم لهجة . وكذلك القول المأثور عن بعض العرب فى قصة « ليس الطيب إلا المسك » حين قال العربى :

[ليس هذا لحنى ولا لحن قومى]

أى ليس لهجتى .

ويقول القتال الكلابى الذى عاش فى عهد مروان بن الحكم يلوم قومه لتخلفهم عن مساعدته :

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا ووحيت وحيا ليس بالمرتاب

وهنا يمكن أن يقال كلمهم بلهجتهم الخاصة أو أومأ إليهم ورمز كما يفسر البيت عند الكثيرين .

وربما كانت كلمة «ألحن» فى الحديث الشريف [إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون إلى فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئا ، فإنما أقطع له قطعة من النار] يراد بها التعبير بصورة مخالفة للمألوف بوجه عام ، مما قد يزين المعنى على السامع ويضله ويموه عليه ، وتلك ناحية من نواحى البلاغة واللسن وإن جانبت الصدق ونأت عن الخلق الطيب . فكلمة ألحن

فى الحديث على هذا الاعتبار مما يتصل بالمعنى الأصلى الذى أشرنا إليه .

ثم تطور المعنى أخيرا إلى « اللحن » بمعنى الخطأ ، وليس الخطأ إلا انحرافا عن الطريق المألوف . ولعل أقدم استعمال لهذا المعنى هو قول مالك بن أسماء صهر الحجاج فى جارية له :

منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحنا

وقد ظل هذا البيت محل النقاش بين النقاد من علماء اللغة القدماء وعابوا على الجاحظ حين فسر اللحن هنا بمعنى الخطأ وأن اللحن فى الكلام مما يستحسن من النساء ، فعاد عنه الجاحظ كما تقول الروايات ولكن بعد أن انتشر البيان والتبيين فى بقاع الأرض . على أن ابن قتيبة فى كتابه « عيون الأخبار » قد أيد الجاحظ فى هذا المعنى وذكر أن العرب كانت تستحسن اللحن فى كلام النساء .

ولكن نقاد الجاحظ وابن قتيبة لم يستسيغوا تفسيرهما وذهبوا إلى تفاسير أخرى لا تخلو من التكلف والتعسف ، مثل أن يقال إن الكلمة من أسماء الأضداد وهى فى البيت بمعنى الصواب ، وفسرها بعضهم بمعنى الرمز والإشارة ، وفسرها آخرون بمعنى الغناء .

ولم يخطر فى ذهن هؤلاء النقاد أن هذا الكلام من عبث الشعراء ومغالاتهم فالشاعر يعجب بجاريته ويلذ له كل شىء منها حتى حين تلحن وتنحرف عن الصواب . ولا يصح من أجل هذا أن ينظر إلى البيت نظرة المنطق والعقل .

ولم ترد كلمة « اللحن » فى القرآن الكريم إلا مرة واحدة فى قوله تعالى: [أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ، ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول]

وأغلب الظن والله أعلم أن « لحن القول » هنا معناه اللهجة الخاصة التى تفشى ما استتر من أمر المنافقين .

هذا ولا يزال ينقصنا مانستدل به على الفترة التى فيها انتقلت الكلمة من

المعنيين اللذين عرفا فى أوائل عهد الإسلام إلى المعنى الأخير وهو الخطأ. وأغلب الظن أنه استعمل لأول مرة بهذا المعنى عندما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالأعاجم إلى الفرق بين النطق الصحيح والنطق الملحون.

على كل حال جاءت الروايات وكتب الأدب والتاريخ تصف الخطأ الذى سمع من بعض العرب فى أوائل عهد الاسلام على أنه لحن. ومن أشهر أمثلة تلك الروايات:

١ — قصة الحجاج مع يحيى بن يعمر النحوى حين سأله الحجاج ذات يوم أترانى ألحن؟ فخشى يحيى بن يعمر من سطـــوة الحجاج وأشفق من مجابهته بالرأى الصراح وقال: مثل الأمير أكبر من هذا!! فأقسم عليه الحجاج إلا ذكر الحقيقة، فلم يجد النحوى بدا من أن يقول نعم، فسأل الحجاج ثانية عن أى حرف من الكلام سمعه يلحن فيه، فأجاب النحوى فى القرآن الكريم!! فقال الحجاج وهذا أشنع، فماذا أقول، قال النحوى تقول

[قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها (احبُّ) إليكم من الله ورسوله] والصواب هو أحبَّ إليكم!!

وهنا تقول الرواية إن الحجاج أطرق خجلا ثم قال للنحوى والله لن تسمعنى ألحن بعد اليوم!! ونفاه إلى خرسان!!

فهذا هو الحجاج الأمير الفصيح والخطيب المفوه والعربى الأصيل تنسب له الروايات هذا النوع من اللحن، ثم هو مع هذا لا يفطن له.

٢ — كذلك تروى كتب الأدب أن عبد الملك بن مروان سئل يوما « لقد عجل إليك الشيب يا أمير المؤمنين » فقال شيبتنى مواقف الخطابة وتوقع اللحن!! أى أن عبد الملك كان فى أثناء الخطابة يشعر شعورا قويا بظاهرة الإعراب فى اللغة المشتركة.

٣ — ومما يروى أيضاً أن كاتبا لأبى موسى الأشعرى كتب له رسالة موجهة لعمر بن الخطاب فأخطأ فيها وقال « من أبو موسى الأشعرى » . فأرسل عمر لأبى موسى يقول اضرب كاتبك سوطا على تلك اللحنة ! !

٤ — كذلك يروون أن عمر بن الخطاب مرّ بقوم يرمون بالسهام فلم يعجبه رميهم ، فقالوا له كيف هذا « ونحن قوم متعلمين » ، فقال عمر والله للحنكم أسوأ عندى من رميكم .

٥ — ويروى أن رجلا تكلم بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم فلحن ، فقال رسول الله ارشدوا أخاكم فقد ضلّ ! !

وأخيراً تلك المناقشات التى كانت تدور بين الفرزدق وعبد الله بن أبى اسحق النحوى الذى كان يتصيد الأخطاء فى شعر الفرزدق ويشنع بها فى المجالس . فمثلا حين قال الفرزدق قصيدته التى مطلعها :

عزفت بأعشـــاش وما كدت تعزف
وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف

قال فى القصيدة يخاطب عبد الملك بن مروان :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلفُ

فسأله النحوى : علام رفعت مجلف ؟ فأجاب الفرزدق فى عزة وكبرياء على ما يسوءك وينوءك ، علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا ! !

وكذلك حين قال الفرزدق يصف رحلته إلى عبد الملك فى دمشق :

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب من نديف القطن منثور
على عمائمنـــا تلقى وأرحلنا على زواحف تزجى مخها ريرِ

* * *

فانتقده النحوى فى كلمة « ريرِ » ورأى أنها واجبة الرفع ، واضطر

الفرزدق إلى تغيير البيت قائلا : على زواحف نزجيها محاسير (أى مرهقة متعبة) .

٧ — بل يحدثنا رواة اللغة عن ظاهرة الإقواء فى شعر الشعراء جاهليهم وإسلاميهم ، وينسبون كثيراً من أمثلتها إلى النابغة وحسان بن ثابت ، وبشر بن أبى خازم .

بل يذكر الفيروزبادى فى محيطه أنه لم تكد تخلو قصيدة جاهلية من هذا الإقواء . والإقواء فى الحقيقة ليس إلا خطأ نحويا ، فحين تتطلب قواعد النحو حركة إعراب معينة فى رويّ القصيدة كان الشاعر يتجاهل تلك القواعد النحوية إذا خالفت ما تتطلبه موسيقى القصيدة من وحدة الحركة فى الرويّ .

فيروى أن النابغة قال فى قصيدته التى مطلعها :

أمن آل مية رائح أو مغتدى عجلان ذا زاد وغير مزود

* * *

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك حدثنا الغرابُ الأسودِ

فلما رحل إلى المدينة دسّ عليه حاسدوه جارية وجعلوها تغنى أمامه بهذا البيت وتتعمد رفع كلمة « الأسود » ، ويقال إن النابغة تنبه لهذا اللحن فغير البيت وقال :

وبذاك تنعاب الغرابِ الأسود

وكذلك يروى أن حسان بن ثابت قال :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر جسم البغال وأحلام العصافيرِ

كأنهم قصب جفت أسافله مثقب نفخت فيه الأعاصيرِ

* * *

ويروى أن بشر بن أبى خازم قال :

ألم تر أن طول الدهر يسلى ... وينسى مثلما نسيت جذام
وكانوا قومنا فبغوا علينا ... فسقناهم إلى البلد الشآم

• • •

وكل هذا يرينا أن بعضاً من خاصة العرب وفصحائهم كانوا يقعون فى اللحن ولا يكادون يشعرون بهذا . لا غرابة إذن أن نتصور أن عامة العرب كانوا يلحنون أحيانا فى تلك اللغة المشتركة ، مما يؤيد ما نرجحه هنا من أن الإعراب لم يكن مظهر سليقة لهم ، ولم يكن شأنه فى ألسنة العرب كلهجات الخطاب ، بل احتاج منهم إلى التعلم والتوفر على إجادته زمنا طويلا قبل أن يصبح مظهر سليقة لأحدهم . ولكن من الإنصاف هنا أن نقرر أن كثيرين من الناس كانوا يتقنون هذا الإعراب فى العصور التى تسمى بعصور الاحتجاج . ولكن اللغة العربية المشتركة رغم هذا كانت اللغة الموحدة لكلمة العرب فى كل الأقطار ، والمعبرة عن آدابهم وأحاسيسهم وآمالهم فى الجاهلية والعُصور الأولى للإسلام .

اللهجات العربية القديمة :

روت كتب اللغة وصفا سريعا لما أسمته باللهجات العربية ، ونسبت فى كثير من الحالات كل صفة من صفات تلك اللهجات لقبيلة معينة أو مجموعة من القبائل ، وفى بعض الأحيان نسبت الصفة لمنطقة جغرافية من مناطق شبه الجزيرة . على أننا فى مواضع كثيرة من تلك الروايات نرى الرواة يكتفون بقولهم إن من العرب من يقول كذا ، دون تحديد أو تعيين لأصحاب هذا القول .

ورغم أن صفات اللهجات العربية القديمة كثيرة ومتنوعة وأنها الآن محل الدراسة المستفيضة فإن الفروق بين تلك اللهجات كانت ضئيلة ومحدودة

بحيث كان من اليسير على الأعرابى فى قبيلة أن يتفاهم بلهجة خطابه مع أعرابى آخر من قبيلة أخرى . ذلك لأن الناس فى البيئات التى تقسو الطبيعة فيها يحاولون عادة العيش فى جماعات كبيرة والاتصال بغيرهم من أبناء القبائل المختلفة رغبة فى تيسير وسائل الحياة على أنفسهم والاستعانة بعضهم ببعض على تلك الطبيعة القاسية . إذ من العسير حقا على عدد قليل من الناس الحياة فى تلك البلاد الشديدة القيظ القليلة المياه المجدبة القفراء . ولكنهم حين يتعاونون ويكثر عددهم قد يستفيدون من خبرة بعضهم فى شق الآبار وخبرة الآخرين فى تقفى الآثار أو الاهتداء بالنجوم والكواكب ليلا ، كما قد يستعينون بتجارب المجربين منهم لمعرفة مواضع الرعى والكلأ فى المواسم المتعددة ، أو حتى فى شن الغارات للنهب والسلب طلبا للقوت وما يكفل لهم الحياة ويصد عنهم الهلاك .

وقد دلت ملاحظات اللغويين من المحـــدثين على أنه حيث تقسو الطبيعة بالحرّ أو بالبرد يميل الناس إلى الاتصال بعضهم ببعض فى صورة جماعات كثيرة العدد ، ولا يكاد ينفرد أو ينعزل فى مثل تلك البيئة عدد قليل من الأفراد . ويترتب على ذلك الاتصال أن تقل الفروق بين اللهجات . ففى منطقة شاسعة كالتى يعيش فيها الاسكيمو لاحظ اللغويون أن الفروق بين لهجات الاسكيمو قليلة ، وذلك لحاجتهم إلى الاستعانة بعضهم ببعض للحصول على الرزق ووسائل الحياة فى بيئة لا تنبت زرعا ، يغطيها الجليد معظم أشهر العام ، هذا رغم أن منطقة الاسكيمو تكاد تبلغ فى مساحتها ما يساوى قارة صغير : وكذلك الحال فى استراليا فقد لاحظ بعض اللغويين فى القرن التاسع عشر أنه رغم ما بها من لهجات كثيرة وجدوا أن الفروق بين تلك اللهجات قليلة وأن التفاهم ممكن بين أصحاب تلك اللهجات ، وذلك لقسوة الطبيعة فى مناطق كثيرة من تلك القارة . فهناك بعض الصحارى والأراضى المجدبة حيث لا ماء بها ولا زرع .

على حين أن منطقة لا تكاد تجاوز مساحة فرنسا وهى Oregon فى غرب أمريكا قد كانت تشتمل على عدد كبير من اللغات المستقلة والتى لا تكاد تمت بعضها إلى بعض بأية صلة . لاحظ هذا بعض المستكشفين فى أوائل القرن التاسع عشر ، وعلل بعض اللغويين لهذه الظاهرة باعتدال الجو فى تلك المنطقة ووفرة ما تنبته الطبيعة من خيرات ، فلم يكن من العسير على أسرة واحدة الانعزال أو الانفراد فى أى بقعة من تلك الأرض ، فقد كفلت لهم الطبيعة الغذاء والدفء وموارد الماء فاستقلوا بمعيشتهم وانقطعوا عن عالمهم ثم تناسلوا وكثر عددهم وتكونت لهـــم لغة مستقلة . وهؤلاء اللغويون يفترضون أن كل لغة من تلك اللغات قد نشأت ونمت مع أسرة واحدة أو أسرتين خرجتا للصيد وطاب لهما المقام فى مكان منعزل .

فتلك الفروق التى كانت بين اللهجات العربية قبل الإسلام قد أخذت تتلاشى فى مطلع الإسلام بفضـــل التعاون الوثيق بين القبائل فى الفتوح الإسلامية . فقد شعرت الجيوش الإسلامية بالهدف الواحد وسيطرت عليهم الروح الإسلامية التى لمت شتاتهم ووحدت آمالهم وأحاسيسهم فكان من الطبيعى أن يكون لكل هذ أثر كبير فى التقريب بين لهجاتهم وعزل تلك الصفات الخاصة التى اشتهرت بها كل قبيلة .

فلما تمت الفتوح الإسلامية واستقرت جيوش المسلمين فى الأمصار رأى عمر بن الخطاب بثاقب حكمته أن يجنب العرب الاختلاط بغيرهم من الأعاجم ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وذلك ليحد من اختلاط العرب بالأمم المغلوبة خشية عليهم من الانحلال الخلقى او الانغماس فى الملذات الدنيوية التى قد تفقدهم شجاعتهم ومتانة الخلق التى عرفوا بها إبان الفتوح والغزوات .

وقد حرم عليهم عمر امتلاك الضياع وأمر بعزلهم عن المدن المفتوحة وجمعهم فى معسكرات بعيدة عنها ، وتلك المعسكرات هى التى أصبحت فيما بعد المدن الإسلامية كالبصرة والكوفة والفسطاط .

ومع كل تلك الحيطة التى أمر بها عمر بن الخطاب لم يكن هناك مفر من اختلاط العرب بالأعاجم فيما بعد .

وقد بدت ضرورة ذلك الاختلاط حـــين احتاج جنود المسلمين إلى الاستعانة بهؤلاء الأعاجم فى كثير من شئون الحياة، فاتخذوا منهم العبيد والخدم والطهاة والتجار الذين يجلبون لهم المؤن والأدوات والثياب من أسواق فارس والشام .

وقد حاول هؤلاء الأعاجم تعلم اللغة العربية لتكون وسيلة التفاهم بينهم وبين أولئك الغزاة وأصحاب القوة والسلطان ، ولكنهم صادفوا فى تعلمهم كثيراً من المشقة ، أو لعلهم قنعوا بأقل قدر من تلك اللغة العربية لتحقيق أهدافهم من الاتصال بالعرب . فنشأت لهم لهجة عربية ممسوخة أشبه بما نسمعه الآن من الجاليات اليونانية التى تعيش بيننا وتحاول التفاهم بقدر ما تستطيعه ألسنتهم وما ينسجم مع لغاتهم الأصلية .

وقد قبل العرب منهم هذه اللغة الممسوخة ولم يعيروها اهتماماً وتركوها سائدة بينهم زمنا طويلا فكأنما قد تصوروا أن هذه هى اللغة التى تليق بمثل هؤلاء الأعاجم .

ويحدثنا التاريخ الحديث عن حدوث ما يشبه هذه الحال فى بلاد الصين وما يجاورها من جزر وثغور خضعت للنفوذ البريطانى فى القرن التاسع عشر فقد نشأت فى تلك المناطق صورة ممسوخة من اللغة الإنجليزية هى التى تعرف باسم pidgin - English وقد اصطنعت هناك للتفاهم بها مع جنود الإنجليز وتجارهم وبعثاتهم وأصحاب السلطة منهم .

وقد حدثنا الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين حـ ١ عن بعض تلك الروايات التى رويت عن نطق الأعاجم للغة العربية فى أوائل عصر الإسلام . فما يروى أن تاجر دواب من هؤلاء الأعاجم غش جنود المسلمين حين باعهم دواب رديئة ، فلما أحضر إلى الحجاج قال :

«شربكاتنا فى هوازها وشربكاتنا فى مدائنها وكما تجىء تكون» .

وهو بهذا يريد أن يقول إن شركاءه بالأهواز والمدائن هم الذين أرسلوا بهذه الدواب الرديئة ، وأنه إنما يبيع ما يرد إليه ولا ذنب له فى هذا .

كذلك يروى ابن قتيبة شيئا من مثل تلك الروايات فى كتابه عيون الأخبار ج ٢ .

أثر الصراع اللغوى فى الأمصار :

ولما تمت الفتوح الإسلامية واستقرت جنود المسلمين بالأمصار ، وكثر اختلاط العرب بالأعاجم من أبناء تلك المناطق كان من الطبيعى أن يحدث ما يشبه الصراع بين اللغة العربية وبين اللغات المغزوة . ولم يكد يمر قرنان من الزمن حتى شهدنا اللغة العربية تسود فى معظم أنحاء تلك المناطق ، ورأينا اللغات المغزوة تنعزل وتنزوى فى الجهات النائية من تلك البلاد . ثم كفلت القرون التالية للغتنا العربية القضاء التام على اللغات التى كانت سائدة فى الأمصار ،فقضت فى العراق على اللغة الفارسية والآرامية ، وقضت فى الشام على اليونانية والآرامية والرومانية وقضت فى مصر على القبطية .

غير أن العربيـــة فيما يبدو لم تخرج من ذلك الصراع خالصة من كل شائبة ، بل أصابها بعض الندوب والجروح التى تمثلها الفروق التى نشهدها الآن بين نطق العرب فى هذه المناطق .

وهنا يبدو أنه لابد من الإشـارة إلى النظرية الطبقية Substratum فيؤكد لنا اللغويون المحدثون أنه حين تحل لغة مكان أخرى بعد صراع بين اللغتين تترك اللغة المقهورة بعض الآثار فى اللغة المنتصرة ، سواء تم هذا عن طريق الغزو العسكرى ، أو عن طريق الهجرات السلمية المتتابعة من منطقة إلى أخرى .

وهم يضربون المثل عادة بالفروق الصوتية القومية التى نلحظها فى اللغة

الفرنسية حين تقارن باللغة الإيطالية واللغة الأسبانية ، فهذه اللغات الثلاث قد انحدرت إلينا من اللغة اللاتينية لغة الدولة الرومانية ، وقد تطورت هذه اللغة وأخذت الصور الحديثة التى نألفها الآن فى تلك اللغات الثلاث . وقد كنا نتوقع أن تصبح اللغة الفرنسية أقرب شبها باللغة الإيطالية ، غير أن الذى تم فعلا هو أن وجدنا اللغة الأسبانية رغم بعد منطقتها عن الدولة الرومانية أقرب شبها باللغة الإيطالية التى تعد بحق الصورة الحديثة للغة اللاتينية القديمة . ذلك لأن البلاد المعروفة لنا الآن باسم إيطاليا هى المكان الأصلى للغة اللاتينية لغة الدولة الرومانية التى سيطرت على معظم أهالى أوروبا فى وقت من الأوقات . فلما تطورت اللغة اللاتينية مع الزمن أخذت الصورة التى نألفها الآن فى اللغة الإيطالية . وقد لاحظ اللغويون المحدثون أن اللغة الأسبانية تشبه إلى حد كبير اللغة الإيطالية مما يبرهن على أن اللغة اللاتينية التى حلت فى أسبانيا لم تجد هناك أى مقاومة من لغة أخرى ، فتطورت فى أسبانيا على نهج شبيه بتطورها فى إيطاليا .

أما فى فرنسا فيبدو أنه قد حدثت مقاومة ، وأنه كان هناك صراع بين اللاتينية الغازية والكلتية المغزوة التى كانت سائدة متغلغلة فيما يسمى الآن بفرنسا . من أجل هذا أخذت اللاتينية بعد أن تطورت فى بلاد فرنسا صورة مخالفة لما عليه الشأن فى كل من إيطاليا وأسبانيا .

وكذلك الحال مع اللغة العربية حين رحلت إلى بلاد الفرس وقام الصراع بينها وبين اللغة الفارسية ، فقد خرجت العربية من هذا الصراع وقد أصابها بعض التغير الواضح الذى تتميز به العربية فيما وراء النهرين . أما فى مصر فيبدو أن الصراع كان هينا ولذلك لم تكد تؤثر القبطية فى لغة مصر العربية أو على الأقل لم نستطع حتى الآن أن نتبين بوضوح مقدار الأثر الذى تخلف عن الصراع بين العربية والقبطية .

ويبدو مما رووته كتب التاريخ والأدب أن معظم الغزاة من العرب الذين رحلوا إلى مصر كانوا ينتمون إلى قبائل يمنية ، فهل كان لهذا أثره فى لهجة الخطاب بين المصريين ؟ وهل هذا هو السبب فى تميز نطقهم عن كثير من الأمم العربية ؟ أم أنهم ورثوا صفات من اللغة القبطية المغزوة وقد بقيت هذه الصفات على ألسنتهم وفى طريقة نطقهم حتى الآن ؟

وعلى كل حال لم يكد ينتهى القرن الأول الهجرى حتى شهدنا آثار الاختلاط بالأعاجم تتسرب إلى ألسنة الأحفاد من العرب ، فقد كثرت الجوارى فى القصور وانتشر الخدم من الأعاجم ، انتشاراً كبيراً ، وبدأت المصاهرة بين رجال العرب ونساء الأعاجم وأدى كل هذا إلى نشأة جيل من أبناء العرب وأحفادهم لا يحسنون النطق باللغة العربية ، ولا يتسمون بالفصاحة التى اشتهر بها أجدادهم ، فعبيد الله بن زياد والى العراق كان كلامه متأثرا بلهجة الأعاجم لأن أمه مرجانة لم تكن عربية ، والوليد بن عبد الملك اشتهر بالخطأ واللحن بعكس أخيه سليمان . أى أن أثر الأعاجم لم يكن مقصورا على العامة من العرب ، بل اقتحم أيضا قصور الخلفاء من الأمويين .

من أجل هذا كله قامت فى أواخر عهد بنى أمية حركة تنقية أو تطهير للغة العربية ـ اضطلع بها بعض العلماء من العرب وآخرون ممن كان أجدادهم من الأعاجم ، ولكنهم رغم هذا نشئوا فى بيئة عربية أصيلة ، فتشبعوا بالروح العربية ، وتحمسوا للغة العربية ، فأتقنوها وأجادوها وعملوا مع العرب على الحفاظ عليها . وقد أدرك أصحاب هذا الفريق أنهم لن يستطيعوا الوصول إلى مناصب هامة فى الدولة إلا عن طريق إتقانهم للغة العربية ، كسيبويه والحسن البصرى رغم قراءاته القرآنية الشاذة من نحو « الحمد لله » وهى التى يقال عنها إنها بلغة تميم ، وقد قبلها الكوفيون مع القراءة الأخرى « الحمدُ لله » .

ورغم هذا فقد ساهم كثير من الأعاجم فى حركة تنقية اللغة العربية

وخلفوا لنا آثاراً جليلة الشأن فى خدمة اللغة .

ولعل أوضح أثر فى نطق الأعاجم للغة العربية ، هو ذلك الأثر الصوتى الذى أشار إليه الجاحظ وغيره من جعل : الحاء هاء والنطق بالقاف كالكاف والعين كالهمزة والجيم كالزاى والشين كالسين ومن ترفيق حروف الإطباق التى تميز بها النطق العربى الصحيح .

ومن كل ما تقدم نرى أن العصر الأموى قد شهد بدء الاتصال والاختلاط بالأعاجم عن طريق المتاجرة والمصاهرة واقتناء العبيد والخدم والجوارى فأثر ذلك فى اللغة بعض التأثير ، ودعا إلى حركة التطهير والتنقية للغة فى أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل الثانى .

العصر العباسى :

فلما جاء العباسيون لم تنزل اللغة العربية عن عرشها رغم أن عهد العباسيين من وجهة نظر معظم المؤرخين ليس إلا نصراً للفرس على العرب الأمويين فى بلاد الشام . فرغم اتسام هذا العهد بالطابع الفارسى فى كثير من نواحيه، ورغم أن معظم قواده ووزرائه كانوا من الفرس أو ممن أصلهم فارسى رأينا أن اللغة العربية لصلتها القوية بالدين الإسلامى قد احتفظت بقوتها وسيادتها ، ذلك لأن الطبقة الحاكمة فى العصر العباسى قد أدركت من بادىء الأمر أن نفوذها وسلطانها رهن بالمحافظة على الدين الإسلامى . فالدولة العباسية قد أسست على شعار دينى ، وقد جاءت معجزة الدين الكبرى وهى القرآن الكريم باللغة العربية ، فكان من الطبيعى أن تستمر المحافظة على هذه اللغة فى العهد العباسى ، بل حتى أولئك الذين عرفوا بالشعوبية والانتصار للحضارة الفارسية لم يحاولوا النيل من لغة العرب ، ولكنهم انتقصوا من عادات العرب وتقاليدهم وتاريخهم ، أما لغة العرب ، فكانت محل العناية والرعاية حتى من أولئك الأعاجم الذين تعصبوا للفرس . ويكفى أن نشير هنا إلى أدب ابن المقفع

وبشار بن برد، وهما ممن تشيعوا للفرس، ومع هذا فقد كتبا باللغة العربية أدبا راقيا .

ومع تلك العناية حدث مالا مفر منه من تأثر اللغة العربية بلغة الأعاجم وشيوع بعض مظاهر اللحن والخطأ حتى على ألسنة المثقفين . فقد رويت لنا أمثلة كثيرة لذلك اللحن منسوبة إلى قوم من أصحاب النفوذ والسلطان فى ذلك العهد .

ويبدو أن لغة الطبقة المتوسطة ولغة العامة من الناس كانت أسوأ حالا و ن كنا لا نكاد نعلم عنها شيئا .

وقد ساعد على الحفاظ على اللغة فى العصر العباسى عناية بعض الخلفاء والوزراء بتلك اللغة ، وتشجيعهم للعلماء وعقد المجالس العلمية فى حضرتهم للمنافسة والمباراة كتلك التى رويت لنا عن سيبويه والكسائى فى حضرة الرشيد والبرامكة . وكان بعض الخلفاء العباسيين أنفسهم فى أوائل هذا العصر يملكون ناصية اللغة فإذا أخطأ الشاعر وقال :

كأن أذنيه إذا تشوفا قادمة أو قلما محرفا

رد الخليفة على الفور « تخال أذنيه » !!

ويقال إن الرشيد كان يفرق بين «أنا قاتلٌ غلامك» ، أنا قاتلُ غلامك بالتنوين أو الإضافة ، فيعتبر الثانى للتعبير عن حدث وقع ، أما الأول فزمنه فى المستقبل .

وقد نظر العلماء فى أوائل العهد العباسى إلى لغة البدو على أنها اللغة العليا ولم يترددوا فى الاحتكام إليهم والرجوع لهم فى كثير من المسائل اللغوية وكان البصريون يفخرون على الكوفيين بقولهم (نحن قد أخذنا اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، أما أنتم أيها الكوفيون فقد أخذتم اللغة

عن أكلة الشوارز والكوامخ . ومن أشهر الشخصيات البدوية التى كان العلماء يرجعون إليها أم الهيثم التى يروى عنها أنها نزلت العراق وعلماؤه يومئذ مشمرون فى إثبات اللغة وضبطها ، والتنازع محتدم بين الكوفيين والبصريين فقال جماعة من العلماء لنذهب إلى هذه الأعرابية ونسأل منها عما شجر بيننا فذهبوا إليها فقيل إنها عليلة ، فلما دخلوا عليها قال أبو عبيدة : عمّ كانت علتك ؟ فقالت :

(كنت وحمى للدكة فشهدت، مأدبة فأكلت جبجبة من صفيف هِلَّعَة فاعترتنى زلخة) فقالوا لها يا أم الهيثم أى شىء تقولين؟ فقالت أو للناس كلامان ما كلمتكم إلا الكلام العربى الفصيح!!

الدكة = الدسم. الجبجبة = الكرش يملأ بالشحم . الهلعة = أنثى المعز . الزلخة = وجع يصيب الظهر .

وقد استمرت حركة تنقية اللغة فى عهد العباسيين فشهدنا كثيراً من الأمثلة المروية عن تشدد العلماء فى بعض المسائل، كالأصمعى الذى أخذ على عاتقه تخطئة بعض الاستعمالات التى شاعت فى عهده. فكان مثلا يرفض كلمة (زوجة) ويرى أن (الزوج) للرجل والمرأة ؛ وحين كان يفرق بين قنع بمعنى ذلّ وقنع بمعنى القناعة .

ولعل أوضح مثل لتنقية اللغة ذلك المؤلف المنسوب للكسائى والمسمى بلحن العامة . فقد جمع فيه صاحبه قدراً من الأخطاء الشائعة فى عهده مثل (حرص) وصحتها كما جاءت فى القرآن الكريم بفتح العين، وكالخلط بين نمى ينمى ونما ينمو، فالأولى بمعنى احمر الخضاب والثانية بمعنى زاد .

ولكن هذه الرواية عن هذين الفعلين تناقض ما رواه أصحاب المعاجم من أن (ينمى) سمعها الكسائى عن قوم من بنى سليم .

وعلى كل حال يبدو أن تلك الأخطاء التى أشار إليها الكسائى فى رسالته

لم تكن أخطاء العامة ، بل يبدو أنها كانت على ألسنة بعض العلماء من الخاصة ، فلما سمعها الكسائى أنكرها ووضع لها هذه الرسالة ، وشبه أولئك العلماء بالعامة مبالغة فى التحقير من شأنهم والحط من قدرهم ، وإن كانوا فى الواقع من خاصة الناس ، فما سماه الكسائى بلحن العامة لم يكن فى الحقيقة إلا لحن الخاصة .

أما اللسان الشعبي ولهجات العامة فى ذلك الحين فلا نكاد نعرف عنها شيئا ، ولكنا نتصور أنه كان للعامة لهجة خطاب من بعض تلك الإشارات السريعة التى نمر بها فى كتب الأدب والتاريخ . كالذى يروى لنا أن جارية للبرامكة قد رثتهم بنوع من النظم سمى بالمواليا لأنه مختتم بكلمة (ياموالياً) ، أو كتلك الأغنية التى تنسب إلى ابراهيم الموصلى ويرويها صاحب الأغانى على أنها باللسان الشعبي ، ولكن تفاصيل هذا اللسان وخصائصه أو صفاته تكاد تكون مجهولة جهلا تاما .

ومن بين تلك الإشارات التى نعثر عليها للدلالة على أنه كان هناك لسان شعبي مايرد فى كتاب البخلاء للجاحظ من اصطلاحات عامية كثيرة للملاحين والشحاذين ، وما يذكره الجاحظ فى البيان من أمثلة لهذا اللسان العامى المولد ج ١

ولما جاء القرن الثالث الهجرى ظهر أثر اللغة الدارجة بين جمهور العامة فى صورة أوضح ، ونشأت حتى بين المؤلفات العلمية بعض الكتب التى كتبت بأسلوب مشوب بكثير من الأساليب والألفاظ المولدة . وكان هـذا الأثر للهجة الدارجة واضحاً جلياً بين المسيحيين واليهود ممن أقاموا فى الدولة العربية . فلهجات الخطاب للنصارى واليهود فى الأمصار كانت باللغة الدارجة المولدة التى تسهل الهمز وتنطق بالضاد نطقاً مخالفاً لنطق العرب ، مما دعا إلى تلك التسمية المشهورة عن اللغة العربية بأنها لغة الضاد .

ويكفى للاستدلال على تلك الحال الرجوع إلى كتاب طبقات الأطباء

لابن أبى أصيبعه وهو نصرانى ، بل يبدو أن تلك اللهجة الدارجة تدأ خذت طابعاً محلياً فى الأقاليم العربية،فكان لها فى مصر صورة مخالفة للتى كانت عليها فى العراق أو الشام،وقد ذكر الجاحظ أن كل مصر من الأمصار فى الدولة العربية كان يتكلم على لغة من نزل به من العرب،وذكر الجاحظ أمثلة تبين الفرق ما بين مكة والبصرة فى الاستعمال اللغوى .

وتدل ملاحظات الجاحظ على أن المحادثة السليمة الخالية من اللحن لم تكن تنتظر إلا من الأعراب الذين ينطقون عربية خالصة أو من لعاء العلماء فى القرن الثالث .

وقد تصدى لهذا بعض علماء اللغة فى أوائل القرن الثالث محاولين إصلاح ما يمكن إصلاحه من تلك الأخطاء التى شاعت على الألسنة فكتب ابن السكيت المتوفى ٢٤٤ هـ كتابه إصلاح المنطق وفيه يعرض للصيغ العربية المختلفة،وكذلك فعل ابن قتيبة فى كتابه أدب الكاتب وفيه حاول المؤلف أن يحدد الصيغ الصحيحة ودلالة بعض الألفاظ التى انحرفت دلالتها مثل « الملة » التى شاع استعمالها بمعنى الخبز ، وهى فى الحقيقة الرماد الحار الذى يخبز فيه ، ومثل « المأتم » الذى معناه الحقيقى اجتماع النساء فى الخير والشر ومثل « تنزه » التى استعملت بمعنى ذهب إلى البستان وأصل معناه ابتعد عن الماء والزراعة .

هذا إلى ماجاء فى كتاب ابن قتيبة من ضبط الصيغ حين يقول مايضم والعامة تكسره أو يكسر والعامة تفتحه أو تضمه .

وكان لكتاب الفصيح لثعلب ٢٩١هـ مساهمة طيبة فى إصلاح ما شاع من كثير من الأخطاء.وقد قام بعض العلماء بعد عصر ثعلب بشرح هـذا الكتاب والتنويه بفضله .

ويستدل من تلك الإشارات التى وردت فى هذه الكتب على أن لغة الخطاب قد ساء حالها فى منتصف القرن الثالث الهجرى، وأن كثيراً من الوزراء والحكام كانوا يتكلمون اللغة الدارجة،وذلك لتغلغل العناصر الأجنبية فى أمور السياسة والحكم وتوليهم كثيراً من المناصب،ولم يكد

يبدأ القرن الرابع حتى شهدنا الدولة العربية الموحدة تنقسم إلى دويلات مستقلة ـ :

١ ـ آل بويه بفارس والعراق من ٣٢٠ هـ

٢ ـ الإخشيديون فى مصر من ٣٢٣ هـ

٣ ـ الحمدانيون بالشام من ٣١٧ هـ

٤ ـ الفاطميون بمصر من ٣٥٧ هـ

حال اللغة فى القرن الرابع الهجرى

ظهر فى القرن الرابع الهجرى كتابان لعالمين متعاصرين أو متقاربى الزمن هما :

١ ـ صفة جزيرة العرب للهمدانى المتوفى ٣٣٤ هـ .

٢ ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى المتوفى ٣٧٥ هـ .

ويعرض المؤلف فى كل من الكتابين بين ما يعرض من أمور أخرى وصفاً جيداً لحال اللغة العربية فى شبه الجزيرة وغيرها من الأقاليم الإسلامية الأخرى كالعراق والشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس .

فيحدثنا الهمدانى عن اللهجات فى جنوب الجزيرة العربية وعن بقايا الحميرية فيها وعن رداءة اللغة فى معظم قبائلها غير أنه فى مكان آخر من كتابه يصف بعض القبائل بالفصاحة وبعضها بالتوسط فى الفصاحة .

ونتبين من وصف الهمدانى أن اللغة العربية حتى فى شبه الجزيرة قد فقدت كثيراً من روعتها وقوتها وبدأ الضعف يتسرب إليها . كما يتضح لنا من هذا الكتاب أن النظرة إلى لغة البدو قد اختلفت عما كانت عليه فى القرنين الأول والثانى من الهجرة ، وأصبح الناس ينظرون إلى لغة الأعراب على

أنها نوع من التقعر والتحذلق ، فلم تعد لها سطوتها القديمة . ومع هذا فقد رأينا من أصحاب المعاجم من رحلوا إلى البادية فى ذلك الحين لمشافهة الأعراب وتلقى اللغة عنهم مثل الأزهرى الذى عاش فى هوازن ومعهم جماعة من أسد وتميم زمنا غير قليل ، فقد أسر أيام فتنة القرامطة وظل هناك حتى فك أسره ، فعاد إلى بغداد يفخر بما جمع من ألفاظ اللغة بين البدو وما سمع من أساليبها عندهم .

ويبدو أن فتنة القرامطة قد أساءت إلى سمعة البدو ونفرت الناس منهم ومن لغتهم ، وصورتهم فى صورة اللصوص والخونة ، ولا سيما بعد اختطافهم الحجر الأسود . ولهذا وجدنا الصاحب بن عباد يعيب على المتنبى حرصه على التفاصح بالألفاظ النافرة الحوشية فكأنما هو وليد خباء أو غذى باللبن ولم يطأ الحضر ولم يعرف المدر ، رغم أن الصاحب نفسه قد حشد فى معجمه المحيط قدراً كبيراً من تلك الألفاظ الغريبة الحوشية .

وقد لاحظنا أن معظم المتأخرين من علماء اللغة حين حددوا عصور الاحتجاج جعلوها فى شبه الجزيرة تنتهى بأوائل القرن الرابع الهجرى حين بدأ الناس ينصرفون عن لغة البدو هناك ، وحين لم يعودوا يحتكون إليهم فى مسائل اللغة وظواهرها . أى أن لغة شبه الجزيرة قد أخذت حينئذ تتسم بطابع محلى واستقلت بلهجاتها عن الأمصار .

أما كتاب المقدسى فقد كتبه ٣٤٥ هـ وفيه حاول أن يبين لنا ما يتميز به كل إقليم من الأقاليم العربية فى لغته . فنى رأيه أن لغة التخاطب فى العراق كانت فى عهده تخالف لغة الشام وهذه تختلف عن لغة مصر وأنه كان لشمال افريقيا خصائص لغوية متميزة وللأندلس خصائص أخرى . ويؤكد لنا المقدسى أن أسمى درجات العربية فى عهده كان فى فارس لأن الناس هناك كما يقول قد بذلوا جهدا كبيراً فى تعلمها وإتقانها ودراستها ، أى أن اللغة

العربية حينئذ قد أصبحت تتعلم ويتوسل إليها بالدراسة والكتاب فلا تلقن بالسماع والمشافهة كأى لغة حية .

ويبدو أن أثر اللغة الدارجة فى الأقاليم العربية كان قويا فقد تسرب بعض السمات منها إلى شعر الشعراء فرأيناه مثلا فى شعر المتنبي حين يستعمل هُو ، وحين يحذف أداة الاستفهام ، وحين يستعمل (اللذ) بدلا من الذى وحين يقول روس بدلا من رءوس ، وحين يبتكر جمعا لكلمة (أخ) فيقول (آخاء) على نهج (آباء) . ولكن بعض هذا الذى ورد فى شعر المتنبي يمكن أن يعزى إلى الضرورة الشعرية وإلى حرية الشاعر التى تدفعه فى الكثير من الأحيان إلى الخروج على النهج المألوف فى أساليب النثر ونظامه .

ولعل أوضح مثل بين الشعراء فى القرن الرابع هو ابن الحجاج الماجن الذى آثر الأسلوب المبتذل من ألفاظ العامة ومعها بعض الألفاظ الفارسية (انظر يتيمة الدهر للثعالبي) وقد استمد ألفاظه العامية من لهجة بغداد فكان يستعمل ستّى ، راسمال ، شوّش، وغير ذلك من كلمات مولدة قبيحة

ويضرب لنا المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم أمثلة كثيرة من تلك الفروق اللغوية التى لاحظها فى أثناء تجواله بالأقاليم العربية. فهو يصف اللغة بالمشرق على أنها أصح اللغات التى سمعها ويعلل هذا بأن الناس هناك كانوا يتكلفونها تكلفا ويبذلون فى إتقانها زمنا طويلا . أما لغة بلاد السواحل (الأحقاف) فيصف لسانهم بأنه وحش ! ! ويحدثنا عن بعض الخصائص فى عدن فيقول إنهم لا يحذفون النون فى (بدينه ورجلينه) وينطقون الجيم كافا فيقول « ركس » بدلا من رجس . ولعله هنا يريد عدم تعطيش الجيم. أما لهجة بغداد فنى رأى المقدسى كانت حسنة فاسدة أى جميلة فى وقعها على الأذن وإن كانت ملحونة حتى على لسان قاضى القضاة . ويرى المقدسى أن لغة الكوفة كانت أصح نسبيا وذلك لقربها من البادية ، أما أختها البصرة

فبعد استيلاء الزنج عليها تأخرت لغتها كثيراً . ويقول عن لهجة صيداء إنها أوحش لهجات سوريا . أما لغة مصر فيصفها المقدسى بالركاكة والرخاوة لأن السكان كما يقول اتكلوا على لسانهم فلم يتكلفوا الأدب ولم يعنوا به . وأخيراً يرى أن لهجة بلاد المغرب شديدة الاختلاف عن العربية فى كل الأقاليم الإسلامية الأخرى .

ولا يكتفى المقدسى بمثل هذا الوصف العام بل يذكر أمثلة لكلمات معينة شاع استعمالها فى كل إقليم فمثلا :

(ا) (السكان) فى العراق يقابلها (الدفة) فى مصر ، ويقابلها (الرَّجْل) فى المغرب .

(ب) النوتى فى سوريا يناظره الملاح فى العراق .

(ح) القلْس هو الحبل فى العراق . والريح المساعدة فى العراق هى (شرته) وفى غير العراق وربما فى سوريا (طاروس) .

(و) وألفاظ السِّنور هى : الهرّ فى العربية القديمة — والدِّمّة وهى مأخوذة من (دِمَتْ) الحبشية وتستعمل فى جنوب الجزيرة — والقطة التى يبدو أن أصلها يرجع إلى اللغة القبطية شائعة الاستعمال فى سوريا ومصر وبلاد المغرب .

(هـ) والفندق التى أصلها يونانى تستعمل كثيراً فى سوريا ومصر وشمال أفريقيا ولكنها فى فارس (خان) وبين النهرين (تيم) ، وعلى كل حال فهذا الكتاب لطبيعة موضوعه الخاص بالرحلات إلى الأقاليم العربية المختلفة قد أظهر لنا شيئاً عن الفروق اللغوية التى تميز بها كل إقليم ، غير أن محاولة المؤلف تصوير تلك اللهجات المختلفة فى القالب العربى الصحيح وكتابتها بالطريقة المألوفة فى كتابة العربية الصحيحة كل هذا قد أفقدنا كثيراً من معالم الصورة الدقيقة لتلك اللهجات ، فلم نستطع الاهتداء إلى كثير من عناصرها وخصائصها . هذا إلى أن المؤلف نفسه لم يكن فيما يبدو أكثر من

رحالة أو عابر سبيل يصف ما يقع له وصفا سريعا دون دراسة مؤسسة على أسس علمية ، ودون استيعاب لكل الخصائص فلم يكن متخصصا أو شبه متخصص فى دراسة اللهجات ، ولم يكن هدفه من كتابه مقصورا على تلك النواحى اللغوية ، ولهذا كله لم نتبين على وجه التحديد حال تلك اللهجات الإقليمية ، وكل الذى أصبحنا متأكدين منه بعد الاطلاع على كتاب المقدسى أن الأقاليم العربية فى العراق والشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس قد أصبح لكل منها فى عهد المقدسى لغة محلية أو لهجة محلية متميزة .

ورغم تلك اللهجات المحلية ظلت اللغة العربية الفصيحة أو بعباره أخرى ظلت العربية المشتركة تسود كل تلك المناطق بين العلماء والأدباء والمثقفين أى أنها اقتصر أمرها على الأدب الجدىّ الكلاسيكىّ وعلى المسائل العلمية . وظلت هذه اللغة المشتركة التى نزل بها القرآن الكريم ورويت بها آداب العرب ، الرابطة القوية التى تربط بين تلك الأقاليم رغم استقلالها سياسيا واجتماعيا ، فلم يكن من الغريب أن ينتقل الشاعر الكلاسيكى بشعره بين تلك الأمصار ليقرأ على الناس فى المجالس الخاصة وبين المثقفين الذين نالوا نصيبا من الثقافة اللغوية .

فالمتنبي مثلا قد تنقل بشعره بين الشام والعراق ومصر ولقى فى كل قطر من هذه الأقطار من يحفل بشعره ويرويه ويقوم بمدراسته وإن اختلف قدر هذا الترحيب بين إقليم وآخر .

كذلك أبو على القالى صاحب الأمالى رحل إلى الأندلس وأقام هناك وسمى بها أبا على البغدادى وألف بالأندلس معجمه «البارع» ، وكذلك الشأن مع العلماء فالخوارزمى رحل من وطنه إلى بغداد ثم إلى سوريا فى عهد سيف الدولة .

ولكن حين نتذكر أن نسبة المتعلمين المثقفين فى تلك العصور كانت قليلة نستطيع أن نتصور أن مجال اللغة العربية المشتركة كان محدودا ومقصورا على أولئك الذين أتيحت لهم فرص الثقافة ودراسة الأدب الكلاسيكى ، ونستطيع أن

تصور أن تلك العربية الفصيحة أو اللغة المشتركة قد أصبحت تقرأ أكثر مما تسمع. فالعراقى يقرأ للشامى أو المصرى فإذا اجتمع بعضهم ببعض فأغلب الظن أنهم كانوا يلجأون إلى تلك اللغة المشتركة كوسيلة للتفاهم ولكن فى غير سهولة أو يسر، فقد اتسمت تلك اللغة المشتركة فى كل إقليم بطابع معين أو ببعض الأساليب المتأثرة إلى حدّ ما باللهجة المحلية .

ورغم أن الكثرة الغالبة من سكان تلك الأقاليم كانوا من المسلمين الذين ينظرون إلى القرآن الكريم وإلى لغته نظرة التقديس فإنهم فيما يبدو قد قنعوا بعد القرن الرابع الهجرى بمستوى من اللغة العربية أدنى كثيرا من أن يؤهلهم لتذوق الأدب العربى الراقى، وأصبح القرآن يرتل للعبادة وللتبرك بآياته دون تعمق فى فهمه إلا على يدى طائفة قليلة من المتعلمين هى التى تركت لنا بعض الآثار الأدبية فى العصور التالية .

لا غرابة إذن أن يحدثنا دارسو الأدب العربى عن ضعف اللغة العربية وضعف إنتاجها الأدبى فى القرون التى جاءت بعد ذلك . وقد ظل الإنتاج الأدبى التقليدى يتدهور ويضمحل شأنه جيلا بعد جيل حتى أواخر القرن التاسع عشر من الميلاد . وقد سميت كل تلك القرون بعصور ضعف الأدب. ولا يصح أن نغتر كثيرا بنشأة شاعر أو كاتب فى القرن السادس وما بعده ممن روى لهم أدب يقرب من أدب القرون الأولى فى الإسلام، فقد كان مثل هؤلاء الشعراء والكتاب من فلتات الدهر . والراجح أنهم لم يجدوا فى عصرهم قوما كثيرين يقدرون أدبهم وإنتاجهم .

ولم يكد يبدأ القرن السادس الهجرى حتى كان ذلك النفر القليل من المثقفين الذين نالوا نصيبا من الثقافة اللغوية يدركون بوضوح مقدار انحراف الناس فى نطقهم للسان العربى وابتعادهم عن النطق المروىّ الصحيح فأخذوا ينادون فى كتبهم بعلاج تلك الحال ويصفون النطق القديم كما سمعوه

من أساتذتهم أو كما قرءوه مرويا فى كتب القدماء . فالحريرى فى المقامة ٤٦ يسوق لنا مجموعة من الألفاظ الظائية التى خلطها العامة بالضاد .

ولقد تبدلت الحال فى القرن السادس الهجرى وأصبح الوقوع فى اللحن أمراً عاديا حتى بين الخاصة من المثقفين ، فبعد أن كان الكسائى فى أواخر القرن الثانى الهجرى يصف من يقع فى الخطأ بأنه من العامة أو فى منزلة العامة تحقيراً لهم أصبحنا نرى الحريرى يتحدث علانية عن أخطاء الخاصة من أهل العلم والدارسين ، فقد كتب كتابه درة الغواص فى أوهام الخواص لا ليصلح لحنا شاع بين العامة وإنما ليحاسب الخاصة من الدارسين على ماشاع بينهم فى عهده من انحراف فى الأساليب وبعد عن النهج الصحيح . كتلك الأخطاء التى تسربت إلى ألسنة المثقفين من أثر اللغات المحلية المولدة مثل [بين البين = بين بين : صباحَ مساء . يعتمدْ = ليعتمد . النساء تكتبن . الحمد لله الذى كان كذا : لغة أكلونى البراغيث . كلا الرجلين خرجا . ومثل الخلط بين نعم وبلى] .

وقد وجدت اللغة العربية الصحيحة فى كل عصور ضعف الأدب منافساً قوياً من الأدب الشعبى المحلى الذى اصطنعت له اللغة العامية الدارجة واتخذت له قوالب من النظم لم تكن مألوفة من قبل تمثلها الموشحات خير تمثيل ، ولاسيما فى القرن السادس الهجرى الذى شهد موشحات ابن قزمان المنظومة بالعامية . بل لقد أصبح من أهم خصائص الموشح التحلل من الإعراب وإدخال العبارات العامية والكلمات الأعجمية الدخيلة . ثم نشأت الأزجال التى لا تختلف فى الحقيقة عن الأوزان القديمة إلا فى أنها خلت من الإعراب وأنها اشتملت على كثير من الكلمات العامية . واصطنعت الأزجال فى ذلك الأدب الشعبى المحلى كالأغانى والقصص والفكاهة والدعابة ، وكان لذلك الأدب الشعبى أثر كبير فى خيال الناس وعواطفهم فقد عبر عن أحاسيسهم وأغانيهم ، وسيطر على مشاعرهم ، وظلت آثار هذا

الأدب الشعبى تروى مشافهة جيلا بعد جيل فى المجالس والمقاهى والندوات العامة . ولكن لم يتح لها التسجيل إلا فى النادر من الأحيان ولذلك اندثرت وذهبت بموت أصحابها ولم يصل لنا منها إلا القليل أو أقل من القليل .

ومما لا شك فيه أنه كان لذلك الأدب الشعبى إنتاج كثير ، ولكن القارئين الكاتبين لم يروه مما يستحق التدوين أو التسجيل فتركوه على الألسنة وفى الأفواه ، ومع ذلك فقد وصلت إلينا بعض تلك الآثار الأدبية الشعبية فى صورة حوار قصصى كان يلقى مع عرض الشخوص المعروفة بخيال الظل فى القرنين الثامن والتاسع من الهجرة . فلدينا الآن بعض المخطوطات التى ترجع إلى عهود المماليك والتى تتضمن بعض القصص الشعبية كقصة تعادير وعلم والراهب منجى .

وقد وضعها مؤلفوها المجهولون باللهجة المصرية الدارجة فى ذلك الحين وكانت تحفظ عن ظهر قلب ويرددها الممثلون من خلف ستار خيال الظل فى صورة لهجة دارجة أصيلة ، وتوارث هؤلاء الممثلون تلك القصص عن أهليهم وذويهم من أصحاب هذه الحرفة فتلقوها فيما يبدو عن طريق المشافهة فترددت على مسمع الناس أجيالا عديدة . غير أن أحد القارئين الكاتبين قد أراد تسجيلها وتدوينها فكانت تلك المخطوطات التى بين أيدينا الآن والتى يؤكد لنا بروفسر « كالا » أنها نسخت سنة ١٧٠٠ م ولكنها ترجع إلى القرن السادس عشر الميلادى . كذلك يذكر بروفسر « كالا » أنه كان بمصر فرق لتمثيل روايات خيال الظل واشتهر أفرادها إلى حد أنها كانت تدعى إلى تركيا للتمثيل أمام السلطان كالذى حدث سنة ١٦١٢ حين رحل داود المناوى مع فرقته لعرض خيال الظل أمام السلطان أحمد الأول .

ولعل من حسن الحظ أن معظم هذه القصص قد قيلت نظماً فجاءت على صورة الزجل مما يساعد على التأكد من الصيغ وطريقة نطقها فى ذلك الحين ؛ غير أن كثيراً من تلك العناصر الدارجة قد اختفت أو غمضت

علينا بسبب الرسم العربى الذى اصطنع لتكتب به اللغة العربية القديمة. فنلا لا نكاد نستنبط الصلة بين نطق الحروف فى العربية ونطقها فى تلك العصور المتأخرة. دعنا نقتبس بعضا من الأبيات الواردة فى تلك المخطوطات :

امشى تعالى للواجب تبقى ناجب
ولا تقفشى تعاجب مالك محتار

فمن هذين البيتين لا نكاد ندرى كيف كان ينطق بالقاف والجيم؟

ولكننا نعلم علم اليقين أن الكلمة (تتعاجب) جاءت على الصيغة الدارجة المألوفة لنا الآن ، ونعلم كذلك أن طريقة النفى كانت هى المتبعة فى اللهجة العامية الحديثة (ولا تقفشى) .

وكل تلك الآثار التى قيلت أو كتبت باللسان الدارج قد اندثرت وذهبت بموت أصحابها ، ولم نجد من يشجع على الاحتفاظ بها خشية أن تنافس اللغة التى نزل بها القرآن الكريم . ولكن هؤلاء الذين حاربوا الأدب الشعبى فى كل العصور وحالوا بينه وبين التسجيل قد نجحوا فقط فى طمس معالمه على الذين جاءوا بعدهم ، وأفقدونا الصورة التاريخية الصحيحة للمجتمع المصرى فى أيامهم ، ولكنهم فشلوا فى منع هذا النوع من الأدب من التداول بين الناس فى أى عصر ، فظل أجيالا يستمتع بها السامعون والمتفرجون فى المقاهى والمجالس ، ولم يخل أى جيل من إنتاجه بل والتفنن فى هذا الإنتاج .

هذا إلى أن أولئك المثقفين الذين أغرموا بلغة العرب ولغة القرآن وحاولوا أن يصوغوا بعض الآداب فى تلك اللغة لم ينجحوا فى إنتاج أدب عربى راق يصرف الناس عن تلك الآداب الشعبية ، بل جاء إنتاجهم الأدبى بالعربية الصحيحة هزيلا ضعيفاً بعيدا عن الأساليب القديمة السامية ، فبينما نراهم يفشلون فى الاحتفاظ للعربية بجدتها وقوتها وسمو آدابها نجدهم من

ناحية أخرى يعملون على محو الأدب الشعبى ، فلا غرابة أن قضى على الأدبين معاً .

وقد ساعد على تلك الحال ماساد البلاد حينئذ من طبقة حاكمة أجنبية بين فرس وأتراك لسانهم الفارسية أو التركية ، ثم هم مع هذا من المتمسكين بالدين الإسلامى فكانوا يجمعون بين أمرين متناقضين يحاولون الاحتفاظ بلغة الدين من ناحية ويعملون على نشر لغتهم الفارسية أو التركية من ناحية أخرى .

وهكذا قدر للأمم العربية فى القرون العشرة الأخيرة ألا تتطور لغتها إلى صورة مستقرة — حتى كانت النهضة التعليمية الحديثة فى أواخر القرن التاسع عشر .

فلما جاء القرن العشرون وبدأت اليقظة العربية دعا بعض المفكرين من المصلحين بين مانادوا به إلى إحياء اللغة العربية ، والنهوض بها والعودة بها إلى سالف مجدها . ذلك لأن فى النهضة بها خيراً من الناحية الدينية فهى لغة الدين التى نزل بها القرآن ، وخيراً من الناحية الاجتماعية فهى من أقوى الروابط التى توحد بين هـذه الأمم العربية وتجعل منها مجتمعاً عربياً متماسكاً .

وهنا بدأ المفكرون من اللغويين يتنبأون بمستقبل تلك اللغة التى ستوحد بين هذه الأمم العربية فى نهضتها الحديثة ، فكانت النبوءة الأولى هى أن اللغة العربية ستعود إلى مجدها الأول بالتعليم وإحياء التراث الأدبى القديم . ومعظم أصحاب هـذا الرأى يعتقدون أن نشر التعليم سيكفل لنا مستقبلا زاهراً للغتنا العربية .

ومعظم أصحاب هذا الرأى من المصلحين الذين يغارون على اللغة العربية ويعتزون بآثارها الأدبية ، ولـكن قل منهم من درس الفـكرة من جميع نواحيها دراسة علمية مؤسسة على النظريات الحديثة فى النطق والتطور

اللغوى والطبيعة اللغوية . ولتحقيق مثل هذا الأمل يحتاج الأمر إلى خطة محكمة تتضافر الجهود فى الأمم العربية على تنفيذها . فهناك صعوبات من ناحية الأداء والنطق تتطلب دراسة مستفيضة وتجارب عملية كثيرة حتى نقرب بين نطق الناس فى الأمم العربية ذلك التقريب المنشود فى كل لغة مشتركة يرجى أن توحد الشعور والأحاسيس بين هذه الأمم المختلفة . وهناك صعوبات من حيث المصطلحات تحتاج إلى جهود المجامع اللغوية ، فى وضعها ونشرها بين هذه الأمم حتى يطمئن الجميع لها .

كذلك هناك صعوبات من حيث الأساليب التى تأثرت باللهجات المحلية أو بلغات أجنبية أوربية كالانجليزية فى مصر والعراق، والفرنسية فى الشام وبلاد المغرب ، وغير ذلك من مشاكل إذا استطعنا التغلب عليها ظفرنا فى آخر الشوط بتلك اللغة العربية المشتركة التى تنتظم جميع الأمم العربية فتوحد بينها سياسياً واجتماعياً .

النطق العربى

حين استقلت الأمم العربية بعضها عن بعض بعد سقوط الدولة العباسية تركت لهجات الكلام المحلية وشأنها تنمو فى الأفواه وتورث إلى الأجيال الناشئة فى صور جديدة ، دون حد من هذا التطور المستقل ، ولهذا نشأت تلك الفروق الصوتية التى نلحظها الآن فى النطق باللغة العربية .

تلك هى الحقيقة التى لا نستطيع أن نفر منها ، بل يجب أن نواجهها فى شجاعة ، وأن نفكر فى كيف نقرب بين هذه اللهجات حين ينطق أهلوها جميعا لغة واحدة هى اللغة الفصحى . واللغة من أقوى الدعائم على التوثيق بين الأفراد والشعوب إن لم تكن أقواها ... وأوضح العناصر اللغوية التى توحد بين البيئات هى تلك التى تتعلق بالناحية الصوتية . ولا سيما نحن

مقبلون على عصر فيه الدراسة اللغوية دراسة سمعية أكثر منها دراسة بصرية .

فيجب الا تنفر آذاننا من نطق بعضنا البعض، لأن فى مثل هذا تفرقة بين أبناء أمم نعمل على توحيدها أو التقريب بينها . وليس أبعث على نفور العربى من أخيه العربى من أن يسمعه ينطق الكلام نطقا يخالف نطقه .

وعناصر الاختلاف فى النطق بين الأمم العربية تكاد تنحصر فى الأمور الآتية :

١ ـ اختلاف فى نطق بعض الأصوات الساكنة كالكاف التى هى فى النطق الصحيح صوت شديد ، ونسمعها فى بعض اللهجات الحديثة صوتا أميل إلى (تش) كما هو الحال فى بعض اللهجات فى فلسطين وسوريا .

وكالقاف التى نسمعها الآن فى أفواه المجيدين للقراءات صوتا مهموسا رغم أن القدماء من علماء مخارج الحروف قد وصفوها لنا على أنها مجهورة . وكالطاء التى ينطق بها فى معظم اللهجات الحديثة صوتا مهموسا ، ومع هذا فقد رواها القدماء بين الأصوات المجهورة . وكالضاد التى نقرأ وصفها فى كتب القدماء ثم لا نكاد نجد لها فى الأفواه ذكرا . وكالجيم التى اختلفت بين اللهجات الحديثة فطورا شديدة كما فى النطق المصرى ، وأخرى أميل إلى الرخاوة كما هو الحال فى النطق المروىّ فى كتب القدماء ، وثالثة كتلك الجيم التى كثر تعطيشها كما فى نطق المغاربة وبعض السوريين . وكالأصوات اللثوية (الذال والثاء والظاء) التى يميل حتى المتعلمون منا إلى النطق بها زايا وسينا وزايا مفخمة على الترتيب .

ورغم أن القدماء قد وصفوا لنا الأصوات الساكنة وصفا دقيقا من حيث المخرج والصفة، ورغم تواتر القراءة القرآنية عن طريق التلقى والمشافهة جيلا بعد جيل ، فقد تطورت بعض الأصوات فى ألسنتنا وأصبح بعضها شديدا بعد أن كان رخوا . واختلف هذا التطور بين بيئة وأخرى من

البيئات العربية حتى أصبح الطفل العراقى الآن يخلط فى إملائه بين الضاد والظاء، كما يخلط الطفل السودانى بين القاف والغين .

فإذا درست تلك الفروق وأمكن اتخاذ نطق نموذجى يوحد بيننا فى هذه الفروق ، لانلبث أن نشهد وحدة تامة بين الأمم الشقيقة فيما يتعلق بالأصوات الساكنة .

٢ ـ اختلاف فى نطق بعض أصوات اللين vowels وهى تلك التى سماها القدماء بالحركات حين تكون أصوات اللين قصيرة ، وسموها حين تكون طويلة بحروف المد .

ونحن فى الاصطلاح العلمى الحديث نجمع بين هذه وتلك فنسميها جميعا أصوات اللين ، لأن الفرق بين الفتحة وألف المد ليس إلا فرقا فى الكمية ، وكذلك الحال بين الكسرة وياء المد ، وبين الضمة وواو المد .

ورغم توارث القراءات القرآنية جيلا بعد جيل عن طريق التلقى والتلقين فقد أهمل أمر أصوات اللين العربية ولم يعن بها القراء عناية كافية ، بل تركت وشأنها تتخذ فى الأفواه أشكالا كثيرة حتى صارت إلى ما نشهده الآن من فروق خطيرة بين الأمم العربية الشقيقة . وكأن القدماء قد ظنوا لخلو الرسم العربى من هذه الأصوات فى غالب الأحيان أنها ليست عنصرا من عناصر اللغة ، على حين أنها لكثرة شيوعها فى الكلام والنطق تعد أوضح وأبرز فى تكوين الفروق بين اللهجات .

لهذا أكرر القول بأن الانسجام بيننا فى أصوات اللين أولى بالعناية من الأصوات الساكنة ، بل تلك هى المشكلة الخطيرة التى يجب أن نواجهها وأن نعمل على حلها ، وذلك بأن نتخذ مقاييس خاصة لأصوات اللين فى النطق العربى نمرن عليها ونتعودها ولا نحيد عنها مهما صادفنا فى هـذا من عنت وعسر .

٣ ـ اختلافنا فى موضع النبر من الكلمة : وهذا هو المظهر الصوتى الثالث الذى يفرق بين النطق فى الأمم العربية ، بل ويفرق أيضاً بين لهجات الكلام فى الإقليم الواحد حتى فى نطقهم للقرآن الكريم . فاستمع مثلا إلى قاهرى أو من أبناء الوجه البحرى يقرأ قوله تعالى « فتحرير رقبة مؤمنة » أو قوله « ويل لكل همزة لمزة » فستراه يضغط فى الكلمات « رقبة مؤمنة ، همزة ، لمزة » على مقطع خاص فى كل منها يخالف ما يصنعه الرجل من أهل الصعيد حين يقرأ هاتين الآيتين . ذلك هو مثل واضح يبين مانعنى باختلاف موضع النبر بين نطق أبناء الأمم الشقيقة .

ألفاظ الحضارة والمصطلحات العلمية :

المشكلة الثانية ـ التى قد تبدو لأول وهله يسيرة يمكن التغلب عليها فى سهولة ويسر هى مشكلة المصطلحات فى الشئون العامة للحضارة ومظاهرها وفى العلوم على اختلاف أنواعها وتعدد نواحيها .

ذلك لأن الحياة الاجتماعية الآن أصبحت تغاير ما ألفه العرب القدماء فقد جدت مخترعات واستحدثت أدوات وتطورت النظم ووسائل المعيشة فى كل شىء ، فللمنزل أدواته الحديثة ، وللمواصلات وسائلها وطرقها المستحدثة وللجامعات والمدارس والمصانع والدواوين مستلزمات لم تكن معروفة من قبل ، وللمحاكم ومجالس الأمة من النظم ما لم يكن لدى القدماء . وبالاختصار تغير كل شىء فى مظاهر الحياة عما كانت عليه حتى فى تلك العصور الزاهرة أيام العباسيين .

وتطلب كل هذا كلمات ومصطلحات اقتبستها الأمم العربية من اللغات الأجنبية حينا ، وعبرت عنها بإحياء ألفاظ قديمة حيناً آخر . ولكن هذه الأمم العربية لم تسلك مسلكا موحداً فى اقتباس الألفاظ الأجنبية ولا فى إحياء الألفاظ القديمة .

فألفاظ القانون فى العراق غيرها فى مصر ، وألقاب الجيش والرتب العسكرية تختلف هنا وهناك ، وكثير من المصطلحات العلمية غير متفق عليه بين تلك الأمم، هؤلاء يدرسون العلوم باللغة الأجنبية وأولئك يحاولون تدريسها باللغة العربية .

وتتطلب هذه الحال جهوداً مضنية فى وضع الألفاظ التى تعبر عن كل المستحدثات،فإذا وضعت واتفـــق عليها بين المفكرين والمصلحين عملت الهيئات على نشرها والترويج لها بكل الوسائل ، بل فرضها على كل الهيئات العربية حتى تنتظم كل البلاد العربية ، وحينئذ يمكن أن يقال إن هناك لغة مشتركة بين هذه الأمم الشقيقة،وتستطيع هذه اللغة التعبير عن كل نواحى الحياة فى هذه البلاد .

٣ — المشكلة الثالثة :

هى مشكلة الأساليب الحديثة التى تولدت عن الترجمة من اللغات الأوروبية وشاعت الآن فى الصحف والكتب وقبلها جمهور المثقفين . فقد تسرب إلى أقلامنا أساليب لا نزاع فى عجمتها فليس لها نظائر فى لغة القدماء من العرب مثل :

١ — فلان لا يرى أبعد من أرنبة أنفه .

Il ne voit Plus loin que le bout de son nez

٢ — فلان يلعب بالنار. jouer avec le feu

٣ — لا جديد تحت الشمس . Rien de nouveau sous le soleil

٤ — أعطاه صوته فى الانتخابات . donner sa voix

٥ — قبض على دفة الحكومة ، ازدهرت التجارة ، ساد الجهـــل والفوضى ، فلان لعب دوراً أو مثل دوراً هاماً فى هذا الشأن ، فلان رجل

الساعة ، توترت العلاقات بين الحكومتين ، هذا حجر عثرة فى سبيل كذا ، إلى الملتقى ، فلان يصيد فى الماء العكر ، حرق بخور الثناء بين يديه ، ذهب ضحية مبدئه ، صب عليه جام غضبه(١) ، وغسل يديه من هذه المسألة، فكل هذه تراجم من اللغة الفرنسية .

هذا إلى قدر كبير من الألفاظ التى أصبحت الآن شائعة فى أساليب الكتاب بمعنى غير الذى روته المعاجم العربية القديمة مثل :

١ — المظاهرة بمعنى إعلان الرأى أو إظهار العاطفة فى صورة جماعية ولكن العرب يستعملونها بمعنى العون من الظهر ، كالمساعدة من الساعد والمعاضدة من العضد، ولكن المظاهرة بهذا المعنى الجديد قد شاعت حتى ليصعب على الناس العدول عنها .

٢ — تجمهر الناس اجتمعوا ، ولكن العرب يقولون تجمهر علينا أى تطاول .

٣ — القنبلة فى اللغة الطائفة من الناس أو من الخيل، ولدينا الآن القذيفة المتفجرة .

٤ — الفشل فى اللغة الكسل والضعف والتراخى، وهى الآن بمعنى الخيبة .

٥ — القاع فى اللغة الأرض السهلة المطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، ويستعملها المحدثون الآن بدلا من القعر فيقولون قاع البئر

٦ — الشقى ضد السعيد ، والمحدثون الآن يطلقونه على اللص وقاطع الطريق .

٧ — التأميم والتدويل والتصنيع والتركيز والتكثيف كلمات حديثة الاشتقاق .

٨ — أعدم المجرم وحكم الإعدام . ولكن الإعدام فى اللغة الفقر .

٩ — كتاب قيّم أى له قيمة استعمال حديث . والقيّم عند العرب هو زوج المرأة أو ولى الأمر .

(١) مجلة المجمع ج ١ ص ٣ .

١٠ — المقاولة والمقاول فى اللغة المفاوض والمجادل وهى الآن العملية يتعهد بها شخص لتنفيذ مشروع.

١١ — إخراج الرواية، والمران على الشىء، والرصيف بمعنى الإفريز، كل هذا استعمال حديث.

١٢ — الجرد بالفتح بقية المال والآن تستعمل فى احصاءات مافى المخزن أو الخزائن

وهكذا نرى أن اللغة التى نألفها الآن فى الصحف والكتب والأحاديث الإذاعية ونسميها باللغة العربية الفصيحة تختلف اختلافا واضحا عن تلك التى كانت سائدة فى العصر العباسى مثلا، فقد طعمت بمئات من الأساليب والألفاظ ذات الدلالات الجديدة المستحدثة.

فإذا أضفنا إلى هذا ماأصاب اللغة من تعديل أو تغيير فى هندسة الجملة Syntax على نحو ما فى الفرنسية أو الانجليزية أدركنا مقدار بعد اللغة العربية الحديثة عما كانت عليه فى الجاهلية وصدر الإسلام

فالجملة الحديثة أطول من الجملة القديمة وأكثر تعقيدا فى تركيبها وذلك لتأثرها بهاتين اللغتين الأجنبيتين.

وهكذا نرى أن اللغة التى نسميها الآن باللغة العربية الفصيحة والتى تنشر بها معظم الصحف وتكتب بها الكتب والمقالات ليست فى الحقيقة اللغة التى عرفها الجاهليون أو حتى التى عرفها العباسيون فى عصورهم الزاهرة.

إنها تشترك معها فى أمور كثيرة وتختلف عنهافى أمور كثيرة أيضا. ولا سبيل إلى العودة إلى لغة الجاهليين وأساليبهم بعد ذلك الشوط الذى قطعته اللغة الحديثة فى تطورها، وبعد أن تغيرت البيئة والظروف الاجتماعية والاقتصادية.

فالذين يدعون إلى الاستمساك باللغة العربية للتوحيد بين الأمم العربية لا يطمعون فى أكثر من أن تتخذ اللغة المألوفة للمثقفين منا الآن أداة

القول والكتابة بين كل هذه الأمم العربية الحديثة . وليس الهدف من هذا مقصورا على توحيد اللسان بينهم، وفى وحدة اللسان القوة والمنعة لهم جميعاً والترابط أو التآلف بينهم جميعا ، وذلك من أقوى مقومات الوحدة العربية التى ندعو إليها الآن . ولكن هذا الهدف يمكن أن يتم حين تصطنع الأمم العربية أى لغة يتفقون عليها وتشيع بينهم ويطمئنون إليها. ولهذا يقال دائما إن العودة إلى اللغة العربية الفصيحة ستخدم أغراضا أخرى بعضها روحى وبعضها تاريخى. ففى العودة إلى نوع من العربية الفصيحة والتمسك بها محافظة على القرآن الكريم وهو المعجزة الكبرى للدين الإسلامى .

أما طريقة نشر تلك اللغة الحديثة بين الأمم العربية فتحتاج إلى خطة محكمة يتوفر على وضعها جماعة من المفكرين، وتعمل على الأخذ بها كل أمة من هذه الأمم العربية . وعناصر هذه الخطة يمكن أن تلخص فى المسائل الآتية :

التعليم:

يقال دائما إن التعليم فى المدارس والمعاهد وبعض الكليات قد نهض باللغة العربية ، وأصبحت الآن أرقى مما كانت عليه فى أواخر القرن التاسع عشر .

وفى مثل هذا القول كثير من الصدق لا نزاع فى هذا . ولكن التعليم الذى ينهض باللغة العربية يحتاج إلى زمن ليس بالقصير ، ولا يستطيع المتعلم الوصول إلى تلك المرحلة التى ننشدها فى إتقان اللغة إلا بعد أن يمر فى جميع مراحل التعليم بما فى ذلك التعليم الجامعى . فإذا سرنا بنفس السرعة التى سرنا عليها فى تعلمنا فى النصف الأول من القرن العشرين فسنحتاج إلى أكثر من قرن من الزمان قبل أن نصل إلى تلك المرحلة اللغوية التى نطمع فيها ونتطلع إليها .

وليس يكفى أن نعمل على محو الأمية ظنا منا أن تعليم الناس قدرا من الكتابة والقراءة سيكفل لهم الإستمرار فى الاطلاع على النصوص والأساليب الفصيحة ، مما يقربنا إلى ما ننشده . ذلك لأن تجربة محو الأمية لم تبرهن على النجاح فى معظم الحالات . فالطفل فى المرحلة الأولى يتعلم كتابة بعض الجمل والكلمات ويستطيع قراءة بعض السطور ، ولكن بعد أن يترك المدرسة لا يلبث أن ينسى كل ما تعلم ، ولا يجد فى حياته العامة حاجة ملحة إلى الاستفادة بهذا الذى تعلمه فلا ينميه ولا يعتز به . لابد لنا إذن من أن نصل فى تعليم الأطفال إلى أواخر المرحلة الثانوية على الأقل حتى نضمن لهم القدر الواجب من معرفة اللغة العربية ، وعلى هذا القدر يمكن أن نأمل أن المرء يبنى المستوى المنشود من فهم اللغة ومعرفتها . ويتطلب هذا إمكانيات مالية ضخمة لتخريج الآلاف من المعلمين وفتح آلاف من المدارس وغير ذلك مما قد يراه بعض الناس عسيرا علينا الآن لنقوم به على الوجه الأكمل ، ولكنى لا أراه عسيرا مع نهضتنا الحالية .

دور الإذاعة فى التعليم

ومن الواجب فى ذلك التعليم الذى ننشده ألا نعتمد على المدارس وحدها ، بل يجب أن نشرك الإذاعة معها . فالتعليم فى العصر الحديث يمكن أن يتم عن طريق الأذن بالسماع إلى الأحاديث ، ولاسيما حين يكون الهدف هو النهوض بالناحية اللغوية . بل إنه من المؤكد أن طريقة التسجيل فى المستقبل ستكون تسجيلا صوتياً لا بالقلم والحبر ، وأن القراءة ستصبح فى أغلب الأحيان عن طريق الأذن لا عن طريق العين ! ! فإذا جعلت كل النشرات والأحاديث والتمثيليات باللغة العربية الصحيحة وصبر الناس على الاستماع إليها وتعودوا هذا فأغلب الظن أنه لن تمر مرحلة طويلة قبل أن نشهد نهوض هذه اللغة بين جمهور الناس ، ولكن دون هذا صعوبات كثيرة فليس من الممكن فرض لون معين من الإذاعات على الجمهور ، بل لابد من عنصر

التشويق فى الإذاعة حتى نضمن الاستماع إليها والانتفاع بها، فمن الواجب العمل على تيسير تلك الإذاعات المشوقة باللغة العربية الحديثة .

وكما أنه لا يمكن فرض التعليم الإجبارى فى كل مراحل التعليم عن طريق القانون لا يمكن أيضاً ولا يعقل أن نسن قوانين نحتم الاستماع إلى الراديو حين يذيع أشياء لا يراها الجمهور مشوقة ولا يود الاستماع إليها .

ونحن مع هذا نحتاج إلى مستويات من الإذاعة تختلف باختلاف السن حينا ، ونصيب المرء من الثقافة حيناً آخر .

والذى لا ريب فيه أن كثرة تردد النصوص الصحيحة على السمع وحفظ الكثير منها يكسب اللسان القدرة على التعبير الصحيح الفصيح، ويساعد كثيرا على نشر تلك اللغة التى ننشدها بين جمهور المتعلمين . فإذا أضفنا إلى هذا العمل على نشر التراث العربى القديم فى طبعات رخيصة ميسرة وسهلة التداول ساعد هذا كثيرا على بلوغ ما نطلب ونأمل .

ولكن الأمر يحتاج إلى لجان تضع الكتب العربية التعليمية لكل مراحل التعليم بحيث تناسب كل الأمم العربية ولا تتعارض مع مابها الآن من عادات اجتماعية وتقاليد محلية يعسر القضاء عليها إلا بعد زمن طويل وتجارب متدرجة . وعلى تلك اللجان أيضا تخير النصوص الإذاعية التى تكفل تلك النهضة اللغوية مع ملاحظة عنصر التشويق الضرورى فى كل إذاعة لتحقيق الغرض منها .

نحن إذن بحاجة أولا إلى وضع أسس تلك اللغة النموذجية التى ترضى عنها كل الأمم العربية فى أصواتها وألفاظها وأساليبها، ثم التأليف الكثير بهذه اللغة مع جعل تلك المؤلفات فى متناول جمهور الناس .

ومن الواجب أن نحذر من تلك النتيجة التى وصلت إليها بعض الأمم فى إحياء لغاتها القديمة ، فقد انتهى الأمر عندهم إلى لغة مصنوعة اصطنعت فى الكتابة وحدها ولم تتح لها فرص الحياة على الألسن وفى الخطاب العادى ، فتلك فى

الحقيقة لغة لا حياة فيها ، بل هي مجرد رموز تقرأ وأشبه بإشارات التلغراف وعلامات المرور وأضواء السفن تنقل شيئا من المعنى وتحقق بعض التفاهم، ولكنها لا تكفل أبدا الانسجام في الروح والعاطفة ولا تكاد تؤلف بين الأحاسيس والآمال . فقد برهنت التجارب الحديثة على أن فكرة اللغة العالمية المصنوعة مقضى عليها بالفشل بسبب لعنة بابل التي ورد ذكرها في الكتب المقدسة . غير أن بعض اللغويين المحدثين من أمثال M. Lewis يؤكد لنا أن العالم مصيره إلى تلك اللغة العالمية الموحدة لكل الأمم، ويعتقد أن هذه المرحلة من التفاهم بين الأمم قد أوشك فجرها على البزوغ أو الظهور وذلك بسبب سهولة الاتصال الحديث بين الأمم، فلم تعد تلك الحواجز الطبيعية من أنهار وبحار وجبال ذات أثر كبير في الفصل بين الأمم بعد المخترعات الحديثة من طيارات ودبابات أو تلغرافات وصواريخ .

نحن إذن بحاجة إلى سياسة موجهة في تنشئة المعلمين الذين سيقومون بعبء إصلاح اللغة لأبنائنا في كل مراحل التعليم وبحاجة إلى استغلال الإذاعة في أحاديثها وأغانيها وتمثيلياتها إلى أبعد حدود الاستغلال . وبحاجة إلى توجيه دور الخيالة والتمثيل نحو ذلك الهدف النبيل فلا نسمح بالتمثيل إلا بعد التحقق من لغة الممثل وصلاحيتها . وأخيرا وليس آخرا نحتاج إلى مجمع لغوي عربي له من قوة التشريع والنفوذ ما يساعده على أن يضع من الألفاظ والأساليب ما تقبله كل الأمم العربية .

ولعل أكبر عقبة في تحقيق تلك الخطة هي تلك اللهجات المحلية التي تسيطر الآن على الألسنة في كل بيئة والتي استقرت بها زمنا طويلا فأصبحت الآن بمثابة عنصر من النفس والعقل والعاطفة لدى كل منا .

تلك اللهجات هي العقبة الكئود في النهوض باللغة الصحيحة ، فما تصلحه المدرسة يفسده البيت أو السوق .

وللقضاء على سلطان تلك اللهجات المحلية نحتاج إلى أمر من سلطة

تشريعية تحرم استعمالها فى المدارس وفى الصحف والمجلات والإذاعة ودور الخيالة والمسارح . ثم نحتاج مع هذا إلى هيئة من المتخصصين فى الدراسات اللغوية الحديثة لدراسة هذه اللهجات دراسة علمية مستفيضة لنتبين ما بها من عناصر أصيلة ترجع إلى اللغة العربية الصحيحة ، فنرد إليها اعتبارها ونستغلها فى تلك اللغة الحديثة التى نريد وضعها والتى ستوحد بين الأمم العربية .

كذلك لنتبين بوضوح صفات وخصائص هذه اللهجات وتكون دراستنا لها بمثابة التشخيص لأى مرض وهى خطوة ضرورية قبل الشروع فى أى علاج . فالذى لا شك فيه أن معظم كلمات تلك اللهجات قد انحدرت إليها من اللغة العربية ولهجاتها القديمة مع تحريف قليل فى بعض أصواتها ، كذلك مما لا شك فيه أن كثيرا من أساليب تلك اللهجات العربية الحديثة جرت على ألسنة العرب القدماء ويمكن من أجل هذا الانتفاع بها فى لغتنا الحديثة . وعلى الجملة يمكن بعد دراسة تلك اللهجات المحلية عزل العناصر التى نريد التخلص منها ووضع الوسائل لهذا الخلاص فى صورة تدريجية ذات نظام ومنهج يكفل لنا النجاح فى عملنا .

إزاء ما تقدم من صعوبات وما نحتاج إليه من جهود يجب ألا يغيب عنا أمر له خطره هو أن التمسك بكل خصائص اللغة العربية القديمة سيجعل الأمر أكثر تعقيدا وأصعب منالا . فقد تبين لنا آنفا أن اللغة العربية الفصيحة قد تطورت مع الزمن وأخذت أشكالا فى عهود الأمويين والعباسيين . ولذلك يكفى لنا الآن الأخذ بأوضح عناصرها وخصائصها وترك تلك العناصر التى تكلفنا كثيرا من العنت والمشقة . فنجاح المشروع رهن بتيسيره كلما أمكن ذلك . وهنا نتساءل هل من الممكن أن نترك الإعراب بالحركات وأن نقف على أواخر معظم الكلمات بالسكون حتى نتجنب تلك العقبة الكئود التى لم يستطع التغلب عليها معظم المتعلمين حتى بعد أن يقطعوا شوطا كبيرا من الثقافة اللغوية ؟ ؟

الذى لا شك فيه أن كل تلك المئات من كتب النحو التى ألفت فى كل

عصور اللغة لم تستطع أن تعصم ألسنتنا عن ذلك اللحن الإعرابى ، هذا إلى أن البحث فى قصة الإعراب ونشأته قد بينت لنا أن الحركات الإعرابية نفسها بدأت ونشأت فى أول أمرها كوسيلة من وسائل الوصل بين الكلمات ، ولم تكن لتحديد وظائف تلك الكلمات فى الجمل على الصورة التى ثبتت فيها بعد ذلك . ويكفى أن نذكر باب الوقف وقواعده وما روى عنه فى كتب القدماء لندرك جواز الوقوف بالسكون وترك الحركة الإعرابية .

ويظهر أن تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل فى الكلام شعراً أو نثراً ، فإذا وقف المتكلم أو اختتم جملته لم يحتج إلى تلك الحركات بل يقف على الكلمة الأخيرة من قوله بما يسمى السكون . ويترتب على هذا الفرض أن الأصل فى كل الكلمات المعربة أن تنتهى بهذا السكون ، وأن المتكلم لا يلجأ إلى تحريك الكلمات إلا لضرورة صوتية يتطلبها الوصل . ويمكن أن نستمد الخيوط الأولى لهذا الفرض من تلك الظاهرة التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بوصل الكلام والتى يسميها النحاة « التخلص من التقاء الساكنين » .

وقد دلت التجارب الصوتية على أن الكلمات فى وصل الكلام يتداخل بعضها فى بعض فتسمع الجملة الطويلة كتلة واحدة لا انفصام بين أجزائها مما قد يترتب عليه أن يكون بين الكلمتين المتجاورتين ما يسمى بالتقاء الساكنين . وحينئذ نحتاج للتخلص منه إلى حركة فى آخر الكلمة الأولى منهما . ففى العبارتين « جزاؤهم العقاب » و« الحمد لله » نرى أنه من الضرورى أن تحرك الميم فى الأولى والدال فى الثانية ، فى حين أن عبارة مثل « الشجر مورق » لا نحتاج إلى تحريك آخر الكلمة الأولى منها بل يمكن ويسهل النطق بها مع سكون الراء .

أما الكلمات المنونة فهذه لا تنتهى فى الحقيقة بحركة بل تنتهى بنون ساكنة فإذا وليها كلمة تبدأ بحرف ساكن جرى عليها ماجرى على « الميم » فى عبارة « جزاؤهم العقاب » أى تتحرك نونها .

أما الحركة التى قبل النون فقد كانت ملتزمة دائما ولا تسقط مطلقا فى

وصل الكلام . ولذا نرى لهجة (نجد) حتى الآن تبقى على تنوين الأسماء في الكلام المتصل وإن كانوا يجعلون الحركة التى قبل النون الكسرة فيقولون مثلا (يومٍ من الأيام) .

ويتحقق التخلص من التقاء الساكنين بأى حركة من الحركات الثلاث الضم أو الكسر أو الفتح ، غير أن الذى قد يرجح حركة على أخرى هو طبيعة الحرف المراد تحريكه أو انسجام الحركة مع ما يجاورها من حركات. فبعض الحروف تؤثر حركة معينة . فحروف الحلق مثلا تؤثر الفتح . ويمكن القيام باستقراء كامل لتوزيع الحركات فى كلمات اللغة لنتبين ما يؤثره كل حرف أو مجموعة من الحروف .

أما الانسجام بين الحركات فيمكن تصوره حين نذكر تلك القراءة القرآنية (الحمدِ لله) بكسر الدال . فتحريك الدال فى هذه العبارة ضرورة صوتية، أما الذى رجح الكسرة فهو محاولة الانسجام بينها وبين كسرة اللام فى (لله) .

ولا يؤثر هذا الفرض فى وزن الشعر ، إذ يستقيم الوزن مع أى حركة حين يكون التحريك ضرورة صوتية ، أما حين يكون التحريك غير ضرورى فقد يبدو للوهلة الأولى أن عدم التحريك يخل بوزن البيت. ولكنا حين نستعيض عنه بسكتة قصيرة نرى البيت من الناحية الموسيقية مستقيم الوزن . فى قول الشاعر :

أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا إلا أقض عليك ذاك المضجع

لا نرى ضرورة لتحريك آخر الفعل (يلائم) ويمكن أن ينطق به ساكناً دون إخلال بالوزن . وكل الذى حدث هو أن « متفاعلن » صارت « مستفعلن » وهو مقبول وكثير فى بحر الكامل .

ولهذا لا ندهش حين يروى لنا بين الشواهد أمثال :

(١) اليوم أشربْ غير مستحقب إثماً من الله ولا واغل

(٢) ولا تشتم المولى وتبلغ أذاته فإنك إن تفعل تسفه وتجهل
(٣) أحاون أن تعلم بها فتردها فتتركها ثقلا على كما هيسا
(٤) سيروا بنى الأعمام فالأهواز منزلكم ونهر تيرى فما تعرفكم العرب

كما لا ندهش لقراءة أبى عمر بن العلاء « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » فليس فى كل هذه الأفعال « أشرب ، تبلغ ، نعلم ، تعرفكم ، يأمركم » ضرورة صوتية لتحريكها .

ولكى تتحقق تلك الوحدة اللغوية يجب على كل الأمم العربية أن يؤمنوا إيمانا قويا بفائدة ونفع ذلك الاتجاه بالنسبة لمستقبلهم السياسى والاقتصادى والاجتماعى وأن تجتمع كلمتهم على العمل لنجاح ذلك ، ولا يمكن أن يتم هذا إلا بأن يسلموا القياد لهيئة موجهة كالجامعة العربية مثلا ، ترسم الخطة وتحدد المعالم وعلينا جميعاً الخضوع لتعليماتها وما تقترحه علينا .

ويبدو حتى الآن أن الأمم العربية لم تتفق على كلمة موحدة بصدد أهداف الجامعة العربية ، فلا تزال بعض هذه الأمم أو بعبارة أخرى لا يزال حكامها يتوجسون خيفة من الجامعة العربية ولا يتحمسون لها الحماس الكافى خوفا على سلطانهم ونفوذهم فى بلادهم .

وليس من المعقول أن نتصور أن مثل هذا الهدف يمكن أن يتحقق مع مرور الزمن ودون تدخل من هيئة منظمة كالجامعة العربية ، وإلا كان علينا أن ننتظر أجيالا وأجيالا لنرى ماذا يحدث فى المستقبل ، وليست العاقبة حينئذ بمأمونة أو مضمونة . فنقطة البدء هى إجماع هذه الأمم العربية على أمر معين بصدد هذه الوحدة اللغوية .

ولعل بعض الناس يتصورون أن مجرد انتشار التعليم المحلى يكفل مع الزمن النهوض بالمستوى اللغوى ويؤدى فى آخر الشوط إلى تلك الوحدة اللغوية التى ننشدها .

ولكن مثل هذا الفرض إن صح أن يصل بناء إلى تلك الوحدة فأغلب الظن أن ذلك لن يتم إلا بعد قرن من الزمان أو نحو ذلك، ونحن بحاجة إلى ذلك الزمن الكبير وإلى تلك الأجيال المتعددة التى سنضحى بها ونتركها نهبا للمصادفة، على حين أنه من الممكن باتفاقهم على أمر معين الاقتصاد الكثير فى تلك الفترة الزمنية مع ضمان النتائج والتأكد من تحقيق الهدف المنشود.

هذا إلى أنه من المؤكد إذا لم ترسم الخطط وتحدد الوسائل أن تتخذ اللغة العربية مع توالى الزمن صورا محلية تختلف فى بعض أساليبها وألفاظها ولا نكون حينئذ قد حققنا شيئا . فنشر التعليم وحده لا يكفى بل لا بد أن يكون تعليما موجها له أهداف معينة ووسائل مدروسة دراسة علمية .

ومن الواجب لذلك أن نستغل إلى أبعد حدود الاستغلال هذه المنظمة الفنية أى الجامعة العربية فنؤسس فيها تلك الهيئة العلمية التى ترسم الخطوط وتضع الوسائل اللازمة لتحقيق الهدف فى سرعة ودون تردد . وعلى الحكومات أن تعين تلك الهيئة بإصدار التشريعات والقوانين الضرورية لتنفيذ ما تشير به، فالزمن الحالى عصر السرعة وإنجاز الأعمال ولا نهوض الآن لأى مشروع مع البطء أو التردد .

ولعل من حسن الطالع أن نجد الآن فى معظم الأمم العربية حكومات ثورية حازمة حاسمة تعالج الأمور بما يتسم وعصر الذرة، ولا تسمح للعقبات أو الصعوبات بعرقلة أى مشروع اقتنع المسئولون بصلاحيته .

فاذا جاز بعد كل ما تقدم أن نتنبأ بأهم الصفات التى ستصبح عليها لغتنا العربية الحديثة فى المستقبل أمكن أن نلخصها فى الأمور الآتية .

موسيقية اللغة :

يبدو من كل الظواهر الاجتماعية التى نشهدها الآن أن وسائل التسجيل الصوتى ستحل فى المستقبل محل الكتابة الهجائية التى كانت فى كل العصور

وسيلة ناقصة لتصوير اللغات . فالكتابة التى اصطنعت منذ القدم للتدوين والتسجيل قد ظلت نحو ثلاثين قرنا وهى على حالها المألوفة لنا من قصور فى تصوير الكلمات كما تنطق فعلا ، واعتماد على حاسة البصر وحدها فى غالب الأحيان ، فسادت القراءة الصامتة حينا طويلا من الدهر ، وكادت اللغة من أصل هذا تفقد موسيقيتها .

ومع هذا فقد حققت الكتابة الهجائية كثيراً من أهدافها فيما مضى ، وكانت مصدر خير كثير للفكر الإنسانى فى كل العصور . غير أنها بعد اختراع الراديو وانتشار الإذاعة و« الفيلم » الناطق بدأت تفقد كثيراً من أهميتها ، وأصبحنا الآن نتنبأ بمستقبل للغة فيه يعود للسمع سلطانه وفيه تمرن الآذان حتى تكون أكثر حساسيـــة وإرهافا ، فتميز بين الفروق الصوتية مهما لطفت ، وتنفى من الكلام ماتأباه الأذن ، وما ينبو فى السمع وتصير اللغة إلى الموسيقية أو ما يشبه الغناء . وحينئذ يسود أدب الأذن تلك الأداة الطبيعية التى نشأت اللغات معها ، ونمت وازدهرت فى ظلالها آلافا من السنين فى قديم الزمان . فمصير الثقافة اللغوية كله مرهون بالإذاعة وانتشارها والتسجيل الصوتى وشيوعه .

ولا غرابة فى مثل هذه النبوءة التى ننادى بها دائماً ، وينادى بها غيرنا من الدارسين ، فقد بدأ فجرها فى البزوغ ، وأصبحنا الآن نسمع عما يسمى بمجلة الهواء فى مصر وغير مصر ، وعن اسطوانات تباع فى الأسواق وقد سجلت عليها روايات شكسبير ، وعن كتب مسجلة على أشرطة فى بعض المكاتب الأمريكية العامة يقرؤها المرء بأذنيه لا بعينيه . فليس بعجيب إذن أن نتصور كل بيت وقد حوى جهازا للتسجيل الصوتى ، يلجأ إليه الناس حتى فى كتابة رسائلهم الخاصة ، وذلك بإملاء الرسالة على آلة التسجيل وإرسالها فى بريد الطائرة إلى مسافات بعيدة ، وهناك يفضها المرسل إليه ويضعها فى جهاز للاستماع ، فيسمع صوت صاحب الرسالة يحدثه كأنما هو معه فى حجرة واحدة . لهذا نتصور أن المستقبل سيعود باللغة العربية المشتركة إلى

الموسيقية التى كانت من أهم خصائصها قبل الإسلام وبعد الإسلام، والتى ساعدت الأمية الجاهلية على وضوحها فى الألفاظ والأساليب. فنى رأيى أن ظاهرة الموسيقية فى اللغة العربية كانت تعزى فى أغلب عناصرها إلى تلك الأمية حين كان الأدب أدب الأذن لا أدب العين، وحين اعتمد القوم على مسامعهم فى الحكم على النص اللغوى. وكما تمرن الآذان فى بيئة الأمية تمرن الألسنة أيضاً فتنطلق من عقالها وقد اكتسبت صفة الذلاقة فلا تتعثر أو تزل فى أثناء النطق.

ومهما تكن الأسباب الأصيلة التى ساعدت على نشأة الشاعرية العربية فى قديم الزمان فالذى يعنينا هنا أن نتذكر أن الأدب الجاهلى قد نما وازدهر فى مجتمع لا يصطنع الكتابة والقراءة، وظل هذا المجتمع العربى قبل الإسلام بضعة قرون يرعى تلك النهضة البيانية ويعمل على ازدهارها. ولم يكن للشعر خلال هذه القرون إلا الصورة الصوتية تتردد على الأسماع فتكسبها المران وعادة التميز بين الكلام المشتمل على الإيقاع والنغم.

وظلت هذه الخاصية بارزة فى الشعر العربى فى كل العصور حتى بعد أن نشأت الموشحات وأريد بها الخروج عن نظام القافية الواحدة والوزن الواحد، فنرى أن هذه الموسيقية قد تنوعت ألوانها وتباينت نغماتها حين انتقل أبناء العرب إلى البيئات الطبيعية المتعددة الألوان من حفيف للأشجار وغناء للأطيار ووقع للأمطار وأصداء مختلفة لأصوات الطبيعة حيث تمتزج فتأتلف وتوحى بنوع من الموسيقية التى لا تسير على وتيرة واحدة كما كانت فى شبه الجزيرة، ولكنها موسيقية الشعر على كل حال. فقد ظل أثر الموسيقية الجاهلية هو السائد فى كل العصور حتى بعد أن أصبحت الدولة العربية أبعد ما تكون عن الأمية أو ما يشبه الأمية. وذلك لأن الشعراء فى كل العصور قد اتخذوا من تلك النماذج القديمة نصبا يحجون إليها ويلتمسون منها الإلهام والوحى.

ولأمر ما سمى الأعشى بصناجة العرب، فهو مع اشتراكه فى الأمية

كجمهور الناس فى بيئته قد عوض عن فقد البصر بسمع مرهف وأذن أكثر حساسية جعلته يتجه بكل قلبه ونفسه نحو هذه الموسيقية اللفظية ويوغل فيها حتى تميز شعره بصلاحيته للغناء أكثر من غيره .

ولأمر ما كان أبو العلاء المعرى أول شاعر عربى لفت نظرنا أو سمعنا إلى ما سماه باللزوميات ، فقد قضى أبو العلاء كل حياته يسمع ولا يكتب وأرهفت أذنه وسمعه بعد ذلك المران الطويل .

لهذ كله نتصور أن لغة المستقبل فى الدولة العربية ستعود إليها الموسيقية ولن يكون هذا مقصوراً على الشعر ، بل سينتظم النثر والحديث أو الخطاب .

٢ — الصفة الثانية التى نتصور أن لغة المستقبل ستتصف بها هى تحديد دلالات الألفاظ ودقتها ، وذلك لما نتوقعه من نمو الحياة العقلية والجنوح للتفكير العميق . فإذا كانت الموسيقية فى قديم الزمان قد شغلت الناس عن الدقة والإحكام فى الدلالات وجاءتنا بمجموعة كبيرة من المترادفات والمشترك اللفظى ، بل لقد شغلتهم عن دقة المعانى وإحكامها حتى فى تلك الكلمات ذات المدلول الواحد ، إذا كان قد حدث هذا فيما مضى فأغلب الظن أن لغة المستقبل ستتخلص من معظم تلك المترادفات وسيصبح للكلمة الواحدة مدلول واحد محدد المجال لا غموض فيه ولا إبهام . فلن نرى فى المستقبل أمثال تلك العبارات الجاهلية التى رويت فى آدابهم من نحو قول مرشد الخير بن ينكف (قبل انتكاث العهد وانحلال العقد وتشتت الألفة وتباين الشهمة) . فكل هذه العبارات لا تفيد إلا معنى واحدا . أو مثل قول طريف بن العاصى (تالله ماسمعت كاليوم قولا أبعد من صواب، ولا أقرب من خطل ، والله أيها الملك ماقتلوا بهجينهم بذجا ، ولا رقوا به درجا ، ولا أعطوا به عقلا ، ولا اجتنوا به خشلا) ، فهذه كلها أمثال يراد بها معنى واحد هو أنهم لم ينالوا ثاره ! !

فكل كلمة فى المستقبل ستستقل بمدلولها ومجالها فى الاستعمال ، وسنفرق بين (السرور والحبور والجذل والغبطة والفرح) ونحو ذلك من مئات المترادفات التى ساقها أبو الحسن الرمانى فى كتابه الألفاظ المترادفة ، أو الفيروزبادى فى كتابه الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف .

ولن نرى ذلك الغموض الذى نلحظه فى كثير مما رواه ابن سيده فى المخصص حين يصف رأس الإنسان بعدة ألفاظ وعبارات لا نكاد نخلص منها بصورة واضحة مثل (رأس أكبس : مستدير ضخم . والرأس المؤوم : الضخم المستدير . ورجل أقبص الرأس : ضخم مدور . وقندل الرأس : عظيمه . والدرواس : العظيم الرأس . والجهضم : الضخم الهامة المستدير الوجه .

بل إن لغة المستقبل ستحل مشكلة الفلاسفة وتحقق لهم أمنيتهم فى غالب الأحوال ، وذلك بجعل دلالة اللفظ جامعة مانعة كما يقولون .

فإذا تحددت تلك الدلالات جنبنا كثيرا من متاعب ، بل ربما يؤدى هذا إلى تلافى ما يصيب الإنسانية من ويلات ، وإلى علاج كثير من المنازعات والخصومات التى نشهدها بين الناس .

٣ — يبدو أن الصلة الثقافية بيننا وبين الأمم الأوربية فى العصر الحديث ستصبغ لغتنا فى المستقبل من حيث تراكيب الجمل وهندستها بصبغة تلك اللغات التى نترجم عنها ونتأثر بأساليبها . وستصبح هندسة الجملة العربية أو ما يسمى Syntax أقرب إلى الطرق السائدة فى تلك اللغات ولا سيما الانجليزية والفرنسية . ويكفى الآن النظرة السريعة إلى أساليب الصحافة والمجلات لندرك بسهولة ما أصاب لغتنا من تطور فى تراكيب بعض الجمل ، وما دخل عليها من جديد فى تلك التراكيب ، ذلك لأن كل لغة تخضع لنظام معين فى ترتيب كلماتها ، ويلتزم هذا الترتيب فى تكوين الجمل والعبارات .

فإذا اختل هذا النظام فى ناحية من نواحيه لم يحقق الكلام الغرض منه وهو الإفهام . ولا تمثل مفردات اللغة إلا ناحية جامدة هامدة من تلك اللغة فإذا نظمت ورتبت ذلك الترتيب المعين سرت فيها الحياة وعبرت عن مكنون الفكر وما يدور فى الأذهان . وليس ما يرد بالمعاجم من كلمات منفردة منعزلة إلا صورة مشوهة مضطربة أشد الاضطراب لأى لغة من اللغات . والذين مارسوا منا تعلم اللغات الأجنبية أو تعليمها يدركون تمام الإدراك أن نظام الكلمات وهندستها شرط أساسى فى الفهم والإفهام ، وأن لكل لغة نظاما معينا لا يصح الإخلال به أو الخروج عنه : فللإنجليزية نظام يخالف ما جرت عليه اللغة الألمانية رغم انتسابهما إلى فصيلة واحدة . ففى كثير من الأحيان نرى أن نظام الألمانية يقضى بتأخير الفعل إلى آخر الجملة مهما طالت تلك الجملة ، ويحار الإنجليزى حين يتعلم الألمانية فى البحث عن الفعل ولا سيما حين تطول الجملة ، فالألمانى قد يقول مثلا (الطفل هادئا فى السرير الصغير ومعه لعبته ينام) . فالذى نتصوره فى لغة المستقبل أن هندسة الجملة العربية ستصبح أكثر تأثراً بهندسة الجملة الإنجليزية أو الفرنسية . فالجملة العربية فى المستقبل كما نتصورها جملة طويلة تتضمن عبارات معترضة ، وتكثر فيها أسماء الموصول ، ويختلف فيها مواضع ما نسميه بمتعلقات الجملة أو العناصر غير الأساسية كالمفعول به والمفعول المطلق والمفعول لأجله والحال والتمييز والجار والمجرور وغير ذلك مما يدركه كل من اتصل باللغات الأجنبية وحاول الترجمة منها .

خذ مثلا هذه العبارة التى اعتبرها نموذجا طيبا لهندسة الجملة العربية الحديثة : « إن المشروع فى أساسه ودون أدنى مغالاة يعد لحسن الحظ خير وسيلة لحل مشكلة المواصلات ، الأمر الذى جعل المسئولين فى غير تردد أو إبطاء يرحبون به جملة وتفصيلا ، ويعملون جاهدين على تنفيذه ، مما يبشرنا بالراحة فى المستقبل القريب » !!

فالعبارات العربية فى المستقبـــل ستصبح أكثر تركيبا أو تعقيداً فى هندستها ، وستحتل متعلقات الجملة أمكنة منها غير المألوفة لنا الآن . وكل هذا بسبب الاتصال الثقافى بالأمم الأخرى والترجمة عن لغاتها والتأثر بتراكيبها .

٤ — هذا إلى ما سيصيب اللغة العربية فى المستقبل من أساليب كثيرة مصدرها الترجمة وما سيدخل فى هذه اللغة من أمثال واستعمالات أجنبية . فلا نتصور أن يبقى فى لغة المستقبل العربيـة على حاله سوى الإعراب بالحركات وصيغ الـكلمات ، وهما الصفتان اللتان يحرص عليهما الناس الآن كل الحرص دون غيرهما من الصفات الأخرى ظنا منهم أنهما كل شىء فى اللغة العربية . على أنه حتى فى هذا نتصور أن بعض الصيغ ستنحرف عن المروى فى النصوص القديمة نتيجة لمـا نسميه بالقياس الخاطىء ، وسيصبح هذا الانحراف مشهورا وشائعا بين الناس ، ومن العسير حينئذ التخلى عنه . وربما نجد فى المستقبل من يتسامح فى هذا ويقول : خطأ مشهور خير من صواب مهجور . أما الإعراب بالحركات فربما سيطر عليـه الناس فى المستقبل وأصبحوا لا يخطئون فيه ولا يقع منهم اللحن ، وإن كان هذا يتطلب جهوداً كبيرة وعناية من المتعلمين أكثر مما نلحظه الآن .

تلك هى أهم الصفات التى نتصورها للغة العربية فى المستقبل إذا تحققت النبوءة التى ينادى بها كثير من المفكرين وهى إحياء اللغة العربية فى صورة حديثة، بحيث تصبح لغة الحديث والخطاب ولغة الناس فى منازلهم وأسواقهم ومعاملاتهم ، وفى كل شئون الحياة الجدى منها والتافه ، وأن ينتظم كل هذا جميع الأمم العربية لنراها كاللغات المشتركة الحقة فى الأمم الأخرى .

رأى آخر فى لغة المستقبل المشتركة

نسمع الآن فى بعض الأوساط العلمية وبين الدارسين من اللغويين رأيا آخر فى تلك اللغة المشتركة التى ستوحد بين الأمم العربية فى المستقبل. ذلك أنهم يرون أن اشتراط اتفاق تلك الأمم على أمر معين بصدد تلك الوحدة اللغوية بعيد المنال فى الظروف السياسية الحالية . فإحياء اللغة العربية فى صورة حديثة يكون لذلك بمثابة وضع العربية أمام الحصان كما يقولون . وهم أيضا يرون أن وضع الخطط وتحديد معالم تلك اللغة الحديثة التى نريد أن تسود فى تلك الأمم العربية ، وأن تنتظم كل أنحائها عملية بطيئة، ومن العسير الاتفاق بين الجميع على كل عناصر تلك اللغـــة المرسومة أو المصنوعة كما يعبرون ، لأنها ستصبح محلا للنزاع والجدل واختلاف الآراء بين الناس فى تلك الأمم . ثم هى مع ذلك ستستنفد جهودا مضنية وأموالا باهظة ، وليست مع ذلك مأمونة العاقبة . وهم يتشاءمون أيضا فيعتقدون أن محو اللهجات المحلية أو القضاء عليها أمر يكاد يكون مستحيلا بعد أن تغلغلت فى نفوس الناس وعقولهم واستقرت فى تلك البيئات المحلية قرونا عدة .

ويبدو أن هذا الرأى يسود بين قوم ممن سيطرت عليهم الناحية المادية الدنيوية . ولذلك نراهم يجعلون الأهداف الدنيوية فى المقام الأول ، وينادون بأن تحقيق الأهداف السياسية والاقتصادية للأمم العربية يجب أن يكون نصب أعيننا قبل أى اعتبار آخر . ولذلك لا نراهم يهتمون كثيراً بما نسميه التراث العربى أو التقاليد العربية التاريخية ، أى أنهم يتجهون بكل شعورهم ونفوسهم نحو المستقبل ، ولا يكادون ينظرون إلى الوراء إلا بالقدر الذى يلائم فكرتهم ولا يعرقل أهدافهم الدنيوية . ولا يعتمدون على

النواحى الروحية أو العاطفية التى يمكن أن تستغل فى الربط بين العرب . ومن أجل هذا لا يعدون الدين أو العقيدة من مقومات الوحدة العربية ، أو على الأقل لا يعلقون آمالا على هذه الناحية ، بل يعلنون دائما أن العقيدة والتعصب لها ربما أدى إلى الفرقة بين عنصرى الناس فى الأمم العربية من مسلمين ومسيحيين ، وأن المسيحيين من العرب لا يقلون حماسة عن المسلمين فى الدعوة إلى الوحدة العربية أو القومية العربية . فالربط بين اللغة والدين فى رأيهم ربما يؤدى إلى عرقلة تلك الوحدة التى ننشدها أو الإبطاء فى تحقيقها . لا داعى إذن لإثارة تلك النعرة الدينية التى سببت من قبل بعض المآسى وفرقت بين أبناء الوطن الواحد . فطالما استغل الاستعمار أسوأ استغلال تلك التفرقة الدينية ليحول بين الأمم العربية وتمام وحدتها .

وليس من العدل أن نصف أصحاب هذا الرأى بعدم الإخلاص لأوطانهم ، لأننا نلمس فى كلامهم حماسا عجيبا للقومية العربية ، ورغبة صادقة فى الوصول إلى الوحدة العربية عن أقرب طريق وأيسر سبيل . ولكن من الحق أيضا أن نقرر هنا أن ما يدعوننا إليه يتضمن تضحيات غالية ، فليس من اليسير أن نتجاهل كل تراثنا العربى التاريخى أو أن نغمض العين عن كل أمر روحى يتصل بديننا وعقيدتنا ، والإسلام على كل حال هو عقيدة الكثرة الغالبة فى تلك الأمم العربية .

كذلك يغالى أصحاب هذا الرأى فيقولون إننا حين نفترض جدلا أن جميع الأمم العربية ستسلم القياد إلى منظمة كالجامعة العربية لتضع لها أسس تلك الوحدة اللغوية ، فسيمر زمن طويل قبل أن ترسم الخطط وتوضع القواعد لتلك اللغة التى نريدها لوحدتنا . وسننفق الأموال الطائلة والجهود المضنية فى تحديد معالم هذه اللغة ، فإذا افترضنا أيضا أنه تم كل هذا ورضيت الأمم العربية بهذه اللغة المفروضة عليهم فلا بد من مرور زمن أطول وجهد أكثر فى تعلم هذه اللغة والسيطرة عليها .

ويتلخص رأى هؤلاء الدارسين فى أن الظروف قد جعلت من وادى النيل مركز الزعامة لكل الأمم العربية ، فقد أتيح له من فرص الحضارة والثقافة ما لم يتح لغيره ، وعدد سكانه أكثر من أى أمة عربية أخرى . فوادى النيل دون مغالاة أو تعصب أرقى حضارة وثقافة ، وأغنى فى اقتصادياته وأكثر استقرارا ، وكان دائما وفى كل الأجيال الماضية محط الرحال والهجرة من جميع الأمم العربية . ومن الواجب إذن أن تصبح لغته الجارية على ألسنة الناس هى اللغة المشتركة التى توحد بين الأمم العربية .

وليس معنى هذا أن تصبح العامية المبتذلة هى تلك اللغة المشتركة ، بل معناه فى رأيهم أن تصبح لغة المثقفين من المصريين وهى التى تسمع فى خطابهم وفى حديثهم ، هى اللغة المشتركة الموحدة بين الأمم العربية . وهم يرون فى لهجة الخطاب المصرية بين المثقفين وفى المدن الكبرى كالقاهرة والأسكندرية ونحوهما أنها لا تختلف كثيرا عن تلك العربية الفصيحة التى ننشدها ، من حيث الألفاظ والمعانى ، ويقتصر الخلاف على بعض التراكيب وأساليب التعبير كطرق النفى وصيغ الكلمات والتحلل من الإعراب بالحركات والتزام صورة معينة فى الإعراب بالحروف ، وغير ذلك من أمور يمكن بسهولة إرجاع كثير منها إلى لهجات عربية قديمة .

وأصحاب هذا الرأى يناقشون فيؤكدون لنا أننا بهذا لن نفقد كثيرا من سمات اللغة العربية القديمة ولن نبتعد كثيرا عن لغة القرآن والدين ، ولكننا بهذا سنضمن نتيجة محققة ونظفر بوحدة لغوية مؤكدة هى أقصى آمال كل عربى مخلص لمستقبل بلاده .

وحجتهم فى دعواهم أن كل الظروف مهيأة لهذه اللهجة المصرية ، فإذاعة وادى النيل تسمع فى قوة ومع الاعتزاز بها فى كل الأمم العربية ، ويؤثر القوم هناك كل ماتذيعه محطات القاهرة ، وماينتجه وادى النيل من

أفلام ، وما تقوم به الفرق التمثيلية من مسرحيات، وما تكتبه بعض الصحف والمجلات بذلك الأسلوب الدارج على الألسنة والسائد فى الحديث والخطاب. ولسنا فى هذا بحاجة إلى وضع الخطط ، بل إن مجرد الإعجاب بهذه اللهجة المحلية يولد التقليد لها ويحمس أبناء الأمم العربية ليحتذوا حذوها فلا يكاد يمضى زمن طويل حتى نراها وقد سادت أو انتظمت جميع أنحاء تلك الأمم . بل هم يغالون فيؤكدون لنا أن مستقبل اللغة العربية المشتركة التى ستوحد بين الأمم العربية مرهون بلغة وادى النيل رضينا أم لم نرض، فجميع الدلائل توحى بحتمية هذا المصير . ذلك لأننا نشهد الآن جميع أبناء الأمم العربية يلتفون حول بيئة وادى النيل وينظرون إليها نظرة التقدير والإعجاب والاعتزاز رغم ما يسود بعض هذه الأمم من ظروف سياسية قاسية على يد حكامها.

وفى رأيهم أنه من الواجب أن تكون نظرتنا للأمور أكثر واقعية ، وأن نتذكر دائما أن تلك اللغة التى يدعون إليها موجودة فعلا ومزدهرة فعلا ، تمثل بها المسرحيات الكثيرة وتذاع بها البرامج المشوقة وتعرض بها الأفلام الجيدة ، بل وتكتب بها بعض المجلات والصحف .

العملية إذن فى رأيهم لا تحتاج إلى أكثر من المزيد من التشجيع . فإذا كان ما يذاع الآن نصفه بتلك اللهجة الدارجة يجب أن تصبح نسبته أكثر كثيرا مما يذاع بما نسميه العربية الفصيحة التى يمكن قصرها على الأحاديث الدينية وبعض الدراسات الأدبية والفلسفية ولكن فى مجال ضيق محدود .

وهم يذكروننا أيضا بدور الغناء من أفواه المشهورين فى إقليم وادى النيل . فللغناء أثره أيضا فى عملية التشويق التى هى أساس هام فى كل تقليد لغوى . فأى خلاف فى نطق بعض الأصوات بين المصريين وغيرهم يمكن أن يقضى عليه بعد زمن قليل عن طريق الأغنية المحبوبة التى يحاول كثير من الناس الترنم بها علانية أو خفية فيما بينهم وبين أنفسهم . فلا يمر زمن طويل حتى نشهد نطقا موحدا للجيم والقاف والضاد ، ونطقا موحدا لوضع النبر من الكلمات ، وفى النغمة الكلامية التى تسمى عند الأوربيين

« Intonation » ونراهم أيضا يناقشون فكرة الربط بين الدين واللغة ويحتجون بأن الدين الإسلامى دين عالمى وليست دعوته مقصورة على العرب وحدهم بل هو للناس كافة . وفى العالم الآن ملايين كثيرة من المسلمين الذين لا يكادون يعرفون شيئا عن اللغة العربية ، وليس من الإنصاف أن نصفهم بأنهم أقل منا إيمانا أو أضعف منا عقيدة أو ولاء للدين الإسلامى . والقول بأن إحياء اللغة القديمة فيه محافظة على لغة القرآن يتضمن بعض الإسراف والمغالاة فى رأيهم ، ذلك لأن أسلوب القرآن كان ولا يزال وفى كل العصور فوق مستوى الجمهور وقد قصد به إعجاز الفصحاء من العرب وقت نزوله ، فحقق هذا الهدف ، وليس من المعقول الآن أن نفرض اللغة العربية القديمة على كل الناس فى العالم ليتقنوها ثم ليتبينوا بعد ذلك ما فى القرآن من إعجاز ولنطالبهم بعد هذا بالإيمان والإسلام . فالمعانى السامية التى اشتمل عليها القرآن ذات قيمة إنسانية جليلة الشأن ومن الممكن أن تترجم إلى الناس فى أى لغة . وربما كان من الانتقاص لقيمة القرآن أن نفترض أن قيمته لسانية فقط وأن ترجمة معانيه تفقده أعظم ما فيه من عناصر الإعجاز كما يرى بعض الباحثين من القدماء .

وهم فى آخر الأمر يعلنون فى صراحة ووضوح أن ما نسميه باللهجة العامية المحلية فى وادى النيل ليس إلا صورة من صور اللغة العربية استمدت كثيرا من عناصرها مما كان ينطق به العرب القدماء ومما جرى على ألسنتهم فى لهجات خطابهم ، ويضربون بعض الأمثلة على هذا من نحو:

١ — كسر حرف المضارعة تلك الظاهرة التى نسمعها على كل لسان الآن فى معظم الأمم العربية ، فقد عرفها معظم العرب القدماء وأجمعت عليها الروايات .

٢ — تسهيل الهمز الذى نسمعه فى الأفواه الآن من مثل (راس وبير) ونحو ذلك ظاهرة قديمة أجمع الرواة على أنها كانت صفة للحجازيين .

ويبدو أن صفات الهمزة من تحقيق أو تسهيل كانت من الأمور التى

فرقت بين لهجات وسط الجزيرة وشرقيها وبين لهجات البيئة الحجازية . فلما نشأت اللغة النموذجية المشتركة قبل الإسلام اتخذت تحقيق الهمزة إحدى صفاتها ، وشاع هذا بين الخاصة فى جميع القبائل العربية . ولكن العرب فى لهجات الخطاب ظلوا فريقين : الحجازيون يسهلون الهمزة ، والبدو وعلى رأسهم تميم يحققونها . وقد روى أن عيسى بن عمر الثقفى قال « لا آخذ من قول تميم إلا بالنبر » أى تحقيق الهمز . فهذا العالم اللغوى كان يدرك تمام الإدراك أن تحقيق الهمز صفة لتميم وأن هذه الصفة من أوضح الصفات التى اقتحمت حصون اللغة الأدبية المشتركة ، وهو بينما يرى الصفات الأخرى لتميم أقل مرتبة فى الفصاحة من نظائرها فى اللغة الحجازية يرى أن همز تميم هو الذى ساد بين الخاصة من العرب وأصبح لا ينتمى إلى تلك القبيلة بقدر ما ينتمى إلى اللغة الأدبية المشتركة .

والحجازيون وإن كانوا فى لهجات الخطاب يسهلون الهمز قد التزموا تحقيقها فى الأساليب الأدبية . قال أبو زيد الأنصارى (أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لا ينبرون ، وقف عليها عيسى بن عمر فقال ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر وهم أصحاب النبر ، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا) . وليس لهذا الاضطرار من معنى سوى أنهم كانوا يهمزون حين يلجأون إلى اللغة الأدبية المشتركة .

وهنا يسوقون تلك القصة التى يرويها أصحاب المعاجم ويشتم منها أن النبى كان لا يهمز أحيانا ، فقد جاء باللسان فى مادة (دفأ) ما نصه (أدفأت الرجل إدفاء إذا أعطيته عطاء كثيرا ، والدفء العطية ، وأدفأت القوم إذا جمعتهم حتى اجتمعوا ، والإدفاء القتل فى لغة بعض العرب . وفى الحديث أنه صلعم أتى بأسير يرعد فقال اذهبوا به فأدفوه ، فذهبوا به فقتلوه ، فوداه صلعم . أراد الإدفاء من الدفء وأن يدفأ بثوب فحسبوه بمعنى القتل فى لغة أهل اليمن [1] .

---

(١) صاحب المخصص ينسبها لجهينة .

٣ ــ اختصار حرفى الجر (من ، على) المألوف لنا فى لهجات الخطاب الآن كان مما عرفت به بعض اللهجات العربية القديمة. قال عمر بن أبى ربيعة (ما أنس ملأشياء لا أنس قولها) . وينسب اختصار (على) لقبيلة بنى الحارث أو (بلحرث) تلك القبيلة التى ينسب لها أيضا صفة شائعة بيننا الآن ويقاسى منها مدرسو اللغة العربية وهى التى تسمى بلغة (أكلونى البراغيث) والتى روى ابن مالك أنها وقعت فى الحديث الشريف « يتعاقبون عليكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ». فنحن قد نقول الآن « خرجوا كل الضيوف »و « راحوا الأولاد إلى المعرض » ونحو هذا .

٤ ــ تشديد الضمير الغائب المفرد (هو ، هى) لهجة همدان قال شاعرهم :

وإن لسانى شهدة يشتفى بها وهوّ على من صبه الله علقم

وقال آخر :

والنفس إن أُمرتْ بالعنف آبية وهىّ إن أمرت باللطف تأتمر

٥ ــ أبى البصريون أن نصوغ أفعل التفضيل من الألوان فلا يقال أسود منه ولا أبيض منه ، ولكن الكوفيين جوزوا هذا ووجدوا له الشواهد من أقوال العرب، وعلى رأى الكوفيين جاء قول المتنبى :

ابعد بعدت بياضا لا بياض به لأنت أسود فى عينى من الظلم

٦ ــ حذف (أن) الناصبة فى لهجات الخطاب الحالية كثير وشائع نقول إياك تروح ، (أرجوك تسافر). ويقول ابن هشام إن حذفها مع بقاء عملها لا يجوز ، ولكن حذفها مع الرفع مقبول ولكنه لا ينقاس . ولكن نسى أو تناسى قوله تعالى « ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا » وأنه قرىء « أفغير الله تأمرونى» أعبدُ » أو « أعبدَ » ! !

٧ ــ وأخيراً صيغة « اتفعّل » التى كثيرا ما نسمعها الآن فى الأفواه

ونأبى استعمالها فى كتاباتنا أولا نعترف بصوابها ، نراها فى آيات كثيرة من القرآن الكريم . فنحن نقول مثلا :

اضّعضع الرجل ، وا ّشهى الأكل ، ا ّصدعت رأسه ، ا ّصور إن هذا حدث ، ا ّطبع بطبعه ، ا ّسرع فى كلامه ، ا كّحلت .

وقد جاء فى التنزيل « لا يسّمعون إلى الملأ الأعلى » ، « فا ّطلع فرآه فى سواء الجحيم » ، « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت » ، « الذين يلمزون المطّوعين من المؤمنين فى الصدقات » ، « يومئذ يصّدعون » ، « قالو اطيرنا بك وبمن معك » ، « وليطّوفوا بالبيت العتيق » ، « إن المصّدقين والمصّدقات » ، « لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق » ، « وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى » ، « أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى » .

كذلك كان الشأن فى صيغة (اتفاعل) فيقول الناس الآن « ا ّطاول عليه » ، « اسّاهل معاه » ، « اشاتموا » ، واصّافحو واصالحوا .

وقد ورد مثل هذا فى القرآن الكريم « اثا قلتم إلى الأرض » ، « بل ادّارك علمهم فى الآخرة » .

وأصحاب هذا الرأى يتساءلون : لماذا بعد كل الذى رأيناه ونراه من روايات قديمة ننتقص من قدر هذه اللهجة ونصفها بأشنع الصفات ونحاربها فى غير هوادة مع علمنا أنها عربية فى أصلها، عربية فى معظم أساليبها وألفاظها ، وأنها وسيلة أيسر لتحقيق الوحدة اللغوية التى ننشدها ؟

وهكذا نرى أن الدارسين من اللغويين المحدثين يتنبأون لمستقبل اللغة التى ستنتظم جميع الأمم العربية بنبوءتين . وكلا النبوءتين يحقق لنا الأهداف السياسية التى تتطلع إليها هذه الأمم ، ولكننا لا ندرى فى صورة قاطعة أى النبوءتين سيتحقق فى المستقبل أو أيهما سيظفر بالفوز والغلبة ، وما يعلم الغيب إلا الله وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .